الدمعة السادسة

بكائية على صلاح عبد الصبور

الدكتور عبد الغفار مكاوي

الاهداء
لصلاح عبد الصبور
لحبيب العمر الغائب والحاضر
من سافر قبلي وإليه أسافر

نَمْ بسلام . يا شاهد عصري وضحيته ، يا جرح العمر وأمل العمر ، نَمْ بسلام حتى نلقاك ، نم بسلام .

الانسان الانسان عبر . لم يمض وحيداً . فسفينتنا عبرت معه للشط الآخر . حملت زاد الأحلام ، وبقية نار تخبو تحت رماد الأيام . ماذا نملك بعدك الا أن نتغطى بالآلام ، أن نسأل روحك : «يا روح الشعر ! زوري أحبابك في ليل القهر ، جودي بالمعنى والالهام ، مطراً يروي هذا القفر ، عودي ، لا تنسينا ، لا تتخلي ، ففراقك مرّ ، والوحدة بعدك في هذا القبر المأهول أمرّ » . الانسان الانسان عبر ، افترش الحصباء ونام ، وتغطى بالآلام ، فعليك سلام ، وعليك سلام .

***

كيف رحلت يا أعز الراحلين ، عن مجلس الرفاق والحديث ذو شجون ؟ قد كنت أرجو أن أكون أول الذين يذهبون ، كالظل كالسحاب في سكون . فكيف أبكيك وليس لي بيانك المبين ، والعمر قد تدلى من مشنقة الضياع والحنين ، فارسنا الحزين ، يا صوت جيلنا الممزق الطعين ، يا أنضج الثمار في بستاننا الضنين ، ودفئنا وشمسنا في عتمة السنين ، ألن نراك بعد اليوم لن نعاين الجبين ؟ والضحكة التي يضج فيها ألف فارس حزين ، تمدنا بآية اليقين ، ألن ترن بعد اليوم لن تطل من حدائق العيون ؟ يا فرحنا وجرحنا الدفين ، أي جنون غالنا أي جنون . .

أرفض موتك يا من أحببت ـ كيف تغيب وأنت الحاضر ما فارقت ؟ نبرة صوتك ، ضحكاتك ، لوعة نظرات من عينيك الواسعتين ، شلال الحكمة يتدفق من قلبك فوق الشفتين ، ومرارة سخرية تتحدى الموت . كيف يجوز عليك الموت ؟ كيف أهادن كابوس الغدر الجاثم في « كنت » ؟ كذب القائل ذات مساء أو ذات صباح : الموت غياب مطلق ، وسن ممتدّ مطبق . أبداً لن تصبح لا شيّ ، فحضورك حيّ ، دفء بين ضلوعي ، جرح في قلبي ، نور في عينيّ . لن تنقطع رسائلك اليَّ ، وبأسرارك واشاراتك ستظل تجود عليّ . رسمك معقود في عينيّ ، صوتك مسموع في أذنيّ ، شخصك موجود وحواري ممدود معك إلى آخر نفس فيّ . يا كأس لحظة بخمرة الخلود امتلأت ، ووردة من شجر الليل نمت ، ومن دموع الزمن الجريح أُسقيت حتى ارتوت ، يا زهرة من طينة السواد والأسى تفتحت ، وبالندى تلألأت ، لما تعرَّت للرياح والظلام والأشواك أُدْمِيَتْ ، مهما ابتعدت فالبعاد لن يضيع نفحتك . « قد كنت عطراً نائماً في وردتك ، لم انسكبت » ؟

***

ـ انتظـار ـ

ـ ١ ـ

ها هو البيت وراءك . ما زالت رائحة الدخان والطعام وثرثرة النساء والرجال والضحكة الصافية من فم الطفلة البريئة تطاردك وتتشبث بثيابك . ما زالت الكتب فوق الرفوف ، وحجارة الألفاظ التي رجمك بها ، وبقع الدماء التي تقطرت على الأرض دون أن يراها أحد ، ما زالت كلها راقدة هناك كحيوانات متعبة تلوذ بالجدار . تستقبل نسمات الليل الباردة فتخبو نار في داخلك وتتوهج . تشعر بنداها يتساقط على رأسك كما يتساقط على شمعة في آخر أنفاسها . تقول لنفسك : ها أنذا « أتحد بجسمي المتفتت في أجزاء اليوم المتفتت ، أرقب جسمي يتحول دخاناً ونداوة »(١) ، يتدلى مجروحاً في سقف الليل الأزرق . ترفع رأسك وتتأمل النجوم المتراصة في سقف السجن الكوني . تهمس بسؤال الأعمى المكسور الخاطر : وهل يأبق الانسان من ملك ربه(٢) ؟ وتتابع خطوات عذابك في اليوم الميت ، تتداخل في جلدك كي تتجول في تاريخه ، تسمعها تهوى في أطرافك ثقلاً ، ترجع مقهوراً لتلم الأشلاء . وتلم أطراف القميص الأبيض وياقته حول الصدر وحول الرقبة .

ـ الدنيا برد . كان الأفضل أن نبقى هناك .

تحس صوت الشاعر وهو يحاول أن يمتد اليك كما يمتد الحبل لانقاذ غريق . تنتبه للثلاثة(٣) الذين يسيرون بجانبك مطرقين صامتين : الشاعر الكبير الأصلع الرأس ، والشاعر المجدد الذيْ يشبه اخناتون ، والناقد الممتلىء الطموح . تشعرُ أنك تهوى في جب

معتم . يسرع الناقد بادلاء حبل اخر :

ـ بالعكس . الهواء النقي هو ما يحتاجه الآن .

ترفع يدك لتتحسس موضع قلبك . تتأمل جسمك يتدلى من سقف الليل الأزرق .

يتلوى في جوف الجب الأسود . يسقط تحت سنابك خيل وحشية . يتفتت فوق الاسفلت . تتنفس بعمق وتتقلب السكين في صدرك . تنظر للصديق مبتسماً : الهواء النقي هو ما نحتاجه جميعاً . يخرج الشاعر الكبير عن صمته : خصوصاً بعد يوم مرهق . تقول بعد فترة صمت : بالفعل . وتضيف لنفسك : بل يوم ميت . يسقط في أيام ميتة من أيام العالم مكرورة. يوم كذاب خوان ـ بعناه بثمن بخس، قايضناه، وساومناه، ودفعناه للنخاس الأبدي، ثمن فطانتنا الصفراء . في الصباح والضحى تجمع في مكتبي أكثر من ثلاثين أو أربعين . ضاقت الغرفة على اتساعها بالثرثرة والدخان والضحكات وصليل أكواب القهوة والشاي وطنين أجنحة الأشعار الزاحفة من الدواوين . بح صوتي من الكلام ، كلت يدي من التأشيرات والتوقيعات ، ضحكت كثيراً حتى أصبحت الضحكة غصة ، نهرت حزني القديم أن يطل من ستائر الجفون ، أمطرت الجميع بحكمتي ودعاباتي المرّة ، حلقت فوق سفوح الصغائر والأكاذيب وتوقفت وحيداً عند القمة كالنسر الجارح والمجروح ، تسللت كفي آلاف المرات لتمسح عش النسر الأبيض كالثلج ، يتهدل فوق السالفتين كشلال فضي . لكل واحد كتاب أو ديوان أو مجموعة قصص يستعجل ظهورها لتغير وجه العالم ، وكل واحد يتسمع طرقات أكف الملايين على بابي . وبقيت وحيداً كالأبطال القدماء ، كالفرسان الحكماء المحزونين ، كمغن سئم الجمهور ولزم الصمت . . .

تتابع الخطوات وتتهشم أصداء كعوب الأحذية على الاسفلت . تخوض الأقدام في ظلام الليل كأنها تخوض في نهر جف ماؤه . يعبر بعض المارة وتتداح أصواتهم في السواد والصمت . تتكسر مقاطع حروفهم على الرصيف كقطع الفخار . يا ليل يا ليل يا ليل .

تنعكس أضواء السيارات العابرة على عينيك فتهز رأسك : « أبعد رماح النور عني » ، تتثاقل أطرافك ، تعلو الموجة ، تطفر من عينيك ، تصفر كالاعصار بأنفاسك . ترتجف الشفتان : « حزني ثقيل فادح هذا المساء » . يسارع الشاعر الكبير فيقترب منك ويمسك يدك : لم يكن يقصد ما قاله . ترفع يدك في غضب مفاجىء : أرجوك . يشاركه الشاعر المجدد رأيه ويغتصب ضحكة : قلبك كبير أكبر من كل ما قال . تمر بيدك على موضع القلب . كأنك تخرج الشوكة من موضعها . تحس الوخز وتملك نفسك من أن تلفظ آه . يشارك الناقد صاحبيه في محاولة يائسة لانتزاع ضحكة منك : كم عذبناك بكلامنا . كم ناجيناك بألفاظ كم آلمناك . لكن قلبك الكبير . . تتحسس موضع الصدر وتلتفت اليه بعينين تقطران لوعة وموتاً ، تعاسة وصمتاً . تحاول أن تنزع الشوكة وتزم الشفتين من الألم . تهم أن تقول : حصل خير ، تغالب الضحكة فيغلبها الحزن كوحش يجثم فوق غزال . تصعد بصرك إلى السماء التي تتواثب فيها السحب السوداء وتخنق أنفاس النجوم الفضية ، تطوف بعينيك كتل الليل الساكنة كقطط سوداء ، تسمع صوتاً في داخلك ينوح : « حزني ثقيل فادح هذا المساء . حزني غريب الأبوين . ويلتوي كالافعوان يعصر الفؤاد ثم يخنقه . وبعد لحظة من الاسار » . . يا ترىٰ هل يعتقه ؟ تبتسم للصحاب وتحاول أن تضحك وأنت تتحسس صدرك : « معذرة يا صحبتي قلبي حزين » . يسارع الشاعر المجدد والناقد في صوت واحد : « من أين آتي بالكلام الفرح » ؟ يؤمن الشاعر الكبير على قولهما ويهتف وهو يربت على ظهر الشاعر الذي يمشي بجانبه : راوية وشاعر . عندما نرجع لن أتركك حتى تروي عني أيضاً . وعندما تموت سنبني لك قبرين وشاهدين . . .

يضحكان وتتردد أصداء الضحكة على الفم وتجاعيد الوجه وأطراف الثياب وتتناثر مع حبات الهواء البارد . يختلس الناقد نظرة حانية إلى وجهك . يلمح انقباضه بالألم . يرفع صوته ليداري غصة انزلقت في حلقه : « حزن تمدد في المدينة . كاللص في جوف المدينة » . يقاطعه الشاعر المجدد محاولاً أن يستدرجك للكلام : « حزن ضرير ، حزن طويل كالطريق من الجحيم إلى الجحيم . حزن صموت » . ثم تستغرقه موجة من الغناء فيمد صوته : « والصمت لا يعني الرضاء بأن أمنية تموت ، وبأن أياماً تفوت ، وبأن مرفقنا وهن ، وبأن ريحاً من عفن ، مسَّ الحياة فأصبحت وجميع ما فيها مقيت » .

ويضحك وحده فتتفتت ضحكته وتتهاوى على رصيف الشارع كالزجاج المكسور . وتنعقد سحابة الحزن على وجه الصحاب فيسدد سهمه الضاحك مرة أخرى ويهتف : « سنعيش رغم الحزن نقهره ونصنع في الصباح ، أفراحنا البيضاء أفراح الذين لهم صباح » . يحس أن السهم خاب ، أوشك أن يرتد الى صدره ، يختلس النظر إلى وجهك ، يتحسس قشرة الأحزان الصلبة التي التفتّ حوله ، تتلوى الكلمات في حلقه وتتبعثر على شفتيه . تتطلع اليه بعين غاب عنها بريق الدعابة ، تسحب نظرتك من وجهه الى أعماق بئرك الدفين ، توشك أن ترد على سؤ اله الذي يخاطبك بلا صوت : « لا تسأل الشيء الحزين أن يبين ، لأنه مكنون . شيء غريب غامض حنون . لعله التذكار . لعله الندم . لعله الأسى . لا تسأل الشيء الحزين أن يقر . لأنه كطائر البحار لا مقر . وقل له لقد ملكتني . فتحت لك ، صندوق قلبي الكليم ، فلتقطر الدموع كالنغم » . تعاودك شكة الألم . وخزها أقسى مما كان . تنعقد خطوط جبينك وتفتح فمك لتقول لنفسك : « لا شيء يوقف المأساة لا أحد » . يصعد من أعماق البئر الاسود صوت يناجيك : « من لي بمن يجس ذلك الشيء الحزين جسّتين ، لكي يرى فجاءته ، ويستبين وجهه ومشيته » . تمد ذراعك وتستند إلى الجدار الأبيض المرتفع على حافة الرصيف . تتحامل على نفسك وتسأل : أليس هذا هو المستشفى ؟ يلتفّون حولك منزعجين ، يسرع الشاعر الكبير فيقترب منك ويمسك يدك : لِمَ المستشفى ؟ أنت بخير . تقول مداعباً بينما تفاجأ بيدك اليمنى وهي تستقر على صدرك : زيادة الخير خير . ألم بسيط . للاطمئنان . يصدق الناقد على كلامك : نعم لن نخسر شيئاً . ما دام المستشفى قريباً . ينبهه الشاعر الكبير : قريب ؟ إنك تلمس جداره . . يقول الناقد وهو يتأبط ذراعك : على بركة الله . هيا بنا . تحاول أن تمدّ الخطى . أن تبدو في مظهر من لا يحتاج لكتف يستند عليها أو لذراع تمسكه حتى لا يسقط . تتأوه في صوت مسموع : آه ما أثقل جسمي الليلة ! تقتربون من البوابة الحديدية . تتلفت وراءك وتمسح نظراتك صدر الليل وخصلات الشعر المنسدل على كتفيه : يا ليل . . يا ليل . . يا ليل . .

« عبرت بي آلاف الأقدام الهمجيه ، أقدام الأفكار الهمجية والنيات الهمجيه ، فتآكلت وشوهت . . يا ليل . . يا ليل . . يا عين . . داويني أيتها الغيمات الفضيه ، برحيق الأنداء الفجريه » . . . .

يسبقك اثنان من الصحاب إلى الممشى المفضي إلى باب المستشفى . يتوقفان عند حجرة الحارس الليلي ويسألان عن الطبيب المناوب . تلمح رأس عجوز أشيب وعينيه الضامرتين تطلان من كوة زجاجية . تتجه مع الشاعر إلى سلالم الدرج الرخامي اللامع ببقع الضوء والظلال الرمادية الساكنة على صفحته . تحاول أن تبدو خفيفاً وأنت تحرك الأطراف الثقيلة كالأصفاد . تضع على فمك قناع ابتسامة تكشف عن المرارة ولا تخفيها وتقول لنفسك : « حزني ثقيل فادح هذا المساء » . . يقهقه الملثم الشرير ولا يسمعه أحد . يتسلل الطارق المجهول وراء الخطوات الصاعدة على الدرج ولا يراه أحد . .

***

- ٢ -

« رباه ! ما سر هذه التعاسة العظيمة ؟ ما سر هذا الفزع العظيم ؟؟ » ينفلت الناقد والشاعر المجدد ويجريان بحثاً عن الطبيب - يبقى الشاعر الكبير بجانبك ، يمد ذراعه بين الحين والحين ليتأبط ذراعك أو ليمر بيده على يدك فلا تطاوعه . يهم أن يفتح فمه ليستأنف الحديث الذي بدأه في أول الليل عن مشروعاته فيحتبس اللسان . يوشك أن يكرر السؤ ال عن الندوة التي اشتركت فيها قبل حضورك فيواجه بابك الموصد . تتراءى أمامه مسوخ الكلمات التي ألقيت في وجهك فيخفض رأسه الى الأرض . الهواء في المدخل لافح ، وأنفاسك المتهدجة تتوالى متقطعة كأزيز النار في الحطب تزيده لفحاً . تطوف عيناك بالعجائز والأطفال والرجال المنتظرين على الأرائك ، بالممرضات اللائي يسحبن المحفّات وتشم رائحة الدواء والمرض والانتظار الممض والموت المتربص خلف الأبواب والجدران الناصعة البياض . يشتد الوخز عليك ويرفرف شيء في صدرك فتقول لنفسك : الطير الأسود . يكون الشاعر قد عثر على كرسيّ فيجرّه نحوك ويدعوك للجلوس . تشكره وتغالب ضحكة لا تريد أن تخرج : « شكراً يا صاحب هذا البيت » . . . . يمدّ يده إلى جيبه ويخرج علبة سجائره ويقدم لك منها وهو يضحك : « نوراً يا صاحب هذا البيت » . . تحس أصابعك ترتعش وهي تبحث في جيب السروال عن القداحة ، تخرجها وتلتقط سيجارة ثم تعيدها إلى مكانها وتشعل له سيجارته . يؤكد الكلام مخاوفه : الأفضل أن تؤجلها لما بعد الكشف . يكفي ما أحرقت الليلة . تبتسم بمرارة : وما احترقت . تغمض عينيك قليلاً وتفتحهما . تتطلع من نافذة المدخل وتنظر في ساعة يدك - يسارع الشاعر قائلاً : لا تقلق - لحظات ونعود اليهم . تتردد في ذاكرتك أبيات قرأتها قديماً : انتصف الليل . وزمن الانتظار فات . وأنا أنام وحدي[٤] . تغمض عينيك وتدير وجهك للحائط وتتابع صدى أبياتك القديمة التي اندفعت اليك بغير ترتيب : « هذا المساء . أدرتُ وجهي للحياة واغتمضت كي أموت . في هدأة السكوت . قد آن للشعاع أن يغيب ، قد آن للغريب أن يئوب » . تندفع أصداء بيت قديم كنت تحب ترديده : وكل ذي غيبة يئوب . وغائب الموت لا يئوب[٥] . تتوالى الأصداء الأولى : « للمركب الجانح أن يرسو على شط قريب . للجدول الناضب أن يفضي إلى نهر رحيب » . يقطع الشاعر حبل النغم مؤكداً : بعد الكشف سنرجع حالاً . ما هي الا دقائق ونعود . لا تنظر في الساعة . أرجوك . تنظر في الساعة وتندهش لقفزات عقاربها . تتمنى لو كانت ميّ ومعتزة[٦] في

الفراش أو لو كانتا بجوارك ، لو وضعتَ يدك على رأسيهما وكتفيهما وتخللت بأصابعك شعرهما وقبلتهما كعادتك قبل الذهاب للنوم . تتمنى لو كانت هي أيضاً بجوارك ، تسألك عما تريد فتقول لها : « أن تكوني لي إلى الأبد ، وأن تكون مقلتك آخر الذي أرى من الحياة » . تلسعك الوخزة في الصدر ويشتد لهيب القلب فتمد يدك كأنك تبعد هواجسها : « كل شيء يا حبيبتي يهون ، ما دمت لي الى الأبد » . تتخيلها تضع يدها على قلبك فتقول : « حينما يكون قلبك الكبير جنب قلبي ـ فالبحر لا يفصلنا ، والنار لا تخيفنا » ، والموت . . وتتوقف لتسحب نفساً عميقاً يتدحرج في لهاثك كجدول يشق طريقه بصعوبة في الأحراش . وعندما تقع عيناك على الصديقين القادمين عن يمين الطبيب. ويساره تتحشرج في أنفاسك المناجاة التي لا تستطيع أن تتمها : ينبئني ـ تهز رأسك وتنفي أنك في شتاء هذا العام . وقدة الحرّ المتلظي في ليل الصيف تعطيك الأمل ـ تعود للمناجاة التي ستتقطع بعد لحظات والتي بدأت تتخللها ملامح الناقد الجادة وابتسامة الطمأنينة على وجه الشاعر المجدد : « ينبئني هذا المساء أنني أموت وحدي . ينبئني هذا المساء أن هيكلي مريض ، وأن أنفاسي شوك ، وأن كل خطوة في وسطها مغامرة ، وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلاً ، في زحمة المدينة المنهمرة» تقول لنفسك وأنت تنهض بصعوبة وتمد يدك للطبيب : « أموت لا يعرفني أحد . أموت لا يبكي أحد » .

***

طويل ونحيل أسمر . حاجباه الكثيفان يقفان كحارسين في ملابس السواد أسفل جبهته الضيقة المربّدة ، ملامحه صارمة وعليها آثار الارهاق والحس المفرط بالمسؤولية ـ يقدمه اليك الناقد ، بل يذكر اسمه : الدكتور . . . ويقدمك اليه وهو يضحك باطمئنان الواثق ويربت بيده على ذراعك : شاعرنا الكبير . . . تسلّم عليه بيد لا تستطيع أن تمنعها من الارتعاش . يوسع الأصحاب مكاناً إلى الوراء ، يرجوك الطبيب أن تصحبه إلى غرفة الاستقبال ، يلتفت خلفه ويطمئن رجلاً مرتبك الأعصاب في أواسط العمر : لن أتأخر . ثم يلامس ذراعك ويقول وهو يبتسم : خير ان شاء الله . يستأذن الصحاب في الدخول معك فيشير إشارة مهذّبة : لن نتأخر . تعب بسيط . ثم ضاحكاً وهو يتفرس الوجوه القلقة والعيون الشاخصة : أمراض العصر . من أدرى بها من المثقفين ؟ تلتفت اليهم وتجاهد لسحب قناع الثقة المطمئن على وجه انسحب عنه الدم واللون : طيب ، دقيقتين . تنظر في ساعتك بسرعة . يقترب منك الناقد والشاعر الكبير ملهوفين : تحب أن نذهب لهم ونطمئنهم ؟ تمطّ شفتيك مرجّحاً الفكرة ثم تقول بسرعة : البركة في الدكتور . لن نتأخر باذن الله . يؤكد الناقد : أنت بخير ، لا داعي لازعاجهم الآن . يضيف الشاعر المجدد : كلّها ثوانٍ وتكونون في البيت ـ تغيم سحابات عابرة على جبهتك وخديك . ترتدّ النظرة للباطن ، تحسّ الشيء الحزين وتمرّ على جناحي الطير الأسود الراقد مفتوح العينين . تشير اليهم إشارة ترجّ الجسد الثقيل : شدّوا حيلكم . . يضحكون ويرتفع صوت هاتف : دائماً أنت أنت نفسك . دائماً مرح . اتكلوا على الله . . تقول لنفسك وأنت تتّجه مع الطبيب الى الغرفة المواربة الباب في الركن القصي وتفحص بعينيك وجوه المرضى على الأرائك ، والأيدي المسندة إلى الصدور والخدود ، والمحفّات العابرة في المداخل والطرقات وأمام أبواب المصاعد ، والعيون الجاحظة المستسلمة للممدّدين عليها : إلى المصير . . ينفذ بصرك في الجلد والثياب وتضيف : « الطارق المجهول ، ملثم شرّير . عيناه مسقيان بالسموم . والوجه من تحت اللثام وجه بوم » . يبتسم الطبيب في وجهك وهو يفتح الباب ويدعوك للدخول فيدوي صوت في سمعك : « الى المصير ، والمصير هوّة تروع الظنون » . . .

***

- ٣ -

يشير الطبيب الى السرير الأبيض الصغير في جانب الغرفة ـ يصفق بيديه فتمرق من باب داخلي ممرضة صغيرة الوجه ضيّقة العينين سريعة الخطى ، تتقدم نحوك وترجوك أن تخلع القميص . عندما تلاحظ ارتعاش ذراعيك تمدّ يدها وتساعدك . تنظر إلى وجهها الصغير وتطيل النظر . تتمدّد على الفراش وتتدلّى قدماك من الطرف الآخر وتحدّق في السقف . تقرأ في طبقات الطلاء المتآكل صوراً وتهاويل ونقوشاً : وجوه مغمضة الأعين ، جدران بيوت تتصدّع ، بوق ينفخ فيه طفل على هيئة ملاك مكسور الجناحين ، سفن تذهب ولا تعود ، شطوط لن ترسو فيها أبداً . . يقترب الطبيب ويمدّ يده ليرفع القميص الداخلي إلى أعلى . يدقّ بأصابعه على الصدر والرئتين . يسرق النظر الى عينيك وملامحك ويحاول أن يوقف المرارة التي تسيل منهما . يضع السماعة على أذنه ويدقّ من جديد على الرئة اليسرى . ينفتح فمه ويغمض عينيه لحظة . يعاود تحريك السماعة من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . تنغرز السكين عميقاً في الجرح وتنفلت الآهة التي حبستها طويلاً . ويرفّ جناح الطير وتتسع عيونه . نظرتك لا تخطىء الخطوط والتعاريج المنعقدة على جبهة الطبيب ، لا تخطىء سهوم بصره وتربُّد ملامحه الدقيقة السمراء . تهمّ بسؤاله ثم تسكت . تزمّ شفتيك كما زمّ شفتيه . يسألك بعد تردّد والسماعة لا زالت تفحص وتهمس له بالنبأ المكتوم : هل شكوت قبل هذا من القلب ؟ يتحرك الوخز في الموضع القريب من السماعة ، تثبت عليه نظرتك الحادة المستسلمة : أبداً . أبداً لم أشك منه . يأتيك صوته الممدود في حنان مبالغ فيه : وما الذي كنت تشكو منه ؟ تمطّ شفتيك وتقول وأنت تبحث في تاريخ جسدك : المتاعب العادية . . يحاول الطبيب أن يغتصب ضحكة لا تلبث أن تتهاوى ثقيلة على فمه : متاعب المثقفين؟ تفكرون أكثر من

اللازم . . تحاول أيضاً أن تجاريه فتقع الضحكة مكسورة النفس والجناح على الملاءة البيضاء الناصعة : كما تعرف . القولون العصبي . آلام الأسنان ـ يقاطعك الطبيب وهو يرفع سماعته ويتركها تتدلى على صدره : والتدخين . تسرع وتقول : طبعاً طبعاً . يسألك بأدب جمّ : تكثر منه ؟ تردّ باقتضاب متمنّياً لو تشعل واحدة : للأسف . يتجه إلى مكتبه ويضع السماعة في حقيبته ، تطلب منك الممرضة أن تنهض وتساعدك على ارتداء القميص الصيفي الأبيض . يتناهى اليك صوته من بعيد بعيد : خير إن شاء الله . استرح قليلاً . يأمر الممرضة بصوت أقرب إلى الصراخ : لماذا تتعبينه بالوقوف ؟ استرح يا أستاذ ولا تنهض من مكانك . سأعود حالاً . يتوالى الوخز وتؤلمك الشوكة . تتابع نظرتك الممرضة التي انشغلت عنك بأدوات وعلب وزجاجات على المكتب وتتأمل ظهرها المحدوب قليلاً وساقيها النحيلتين وحركتها اللاهثة ـ تسألها هل أمر بحقنه ؟ تقول وهي لا تزال مشغولة عند المكتب وظهرها النحيل يتدحرج مع كل كلمة : كورامين . ثم وهي تستدير نحوك باسمة : لن تشعر بأيّ ألم . تسحب عينيك إلى داخلك . تتصاعد خطى اليوم المرهق وتذكاراته الى أطرافك كالرصاص الصدىء الثقيل . يتصاعد معها الندم على الساعات الضائعة واللحظات المقتولة . تتجول في منبى التليفزيون الذي قضيت فيه ساعات . دائماً وأبداً المصيدة نفسها . تُستدرج اليها وتشارك في مأدبة الثرثرة وتأكل لحماً عافته نفسك منذ زمان . هناك تحدّثت عن الغربة . « إننا الأغراب في القفر الكبير » . غربة المثقف في أوروبا . زهرة العمر وقنديل أم هاشم . وأديب الخارج من جوف الهرم وأنفاس الموت الأبدي ليصدم بهواء الحرية ويحترق بشمس الجنس المسعورة ـ « القطيع . غاب راعيه وطالت رحلته وهو في بيداء لا ظل بها » . وحوار ممطوط يتهدج فيه صوتك ، تتحشرج أنفاسك وهي تحاول أن تنفذ في غابات الشوك المغروزة في صدرك ـ وضحكات لم تستمتع بها ، وثناء تتأفّف منه ، وبطولات حققها أبطال موهوبون وما أغناك عنها . وتنادم غربتك وتسقيها وتنادمك . وتقول لنفسك وسط الأضواء على مرأى من فرسان العصر « أسعى وراء الشمس ، والشمس في ظهري » . ويختلس الحلم نظراته إلى شمس أخرى ومدن أخرى ، إلى حياة التفرغ تحت شمس كمبريدج الشتوية[٧] ، الى العودة لمشاهد عنترة[٨] ، الذي لم يتم ويحتاج لجو آخر وهواء آخر وفرسان غير الفرسان ، إلى مشارف الخمسين[٩] التي تنتظر أن تكملها بذكريات وذكريات من زمن الجراد والاكتئاب والضحكات المغتصبة وجيل الموتى قبل الموت ، إلى وجوه تتذوّق طعم البسمة وعيون تحلم وتعمل لمدن المستقبل ، إلى أجساد خلقت للحب وعرفت سر المعجزة . . لكن جاء الغيلان . . . تتنبّه الى ظل الممرضة التي تقف أمام سريرك والحقنة في يدها . تبتسم وتقول : أقل من ألم الشعراء . . لن تحس بشيء ، تمدّ ذراعك اليسرى فتقول : بل الذراع اليمنى . تمر بقطعة قطن في يدها اليمنى على العرق المنتفض : عرق لا يتعب . يدعو للشك . تضحك الممرضة وهي تغرز الابرة بتؤدة وبراعة : سمعت عن رجل يقول : أنا أشكّ فأنا اذن موجود . ومنذ ذلك اليوم وأنا أشك كل من يرقد على هذا السرير . . توشك أن تنفجر الضحكة فيتهدّج صوتك ويشتدّ سعالك . تنزعج الممرضة . تطمئنها بعد أن تلتقط أنفاسك وتقول بعد قليل : لو شككت ديكارت لأصبح رجلاً عاقلاً . تسأل الممرضة : من ؟ تدرك غلطتك وتعتذر : حكيم . الله يرحمه . . تتّجه الممرضة الى المكتب وتضع الحقنة في طبق كبير من الصاج لا زال البخار يتصاعد منه . تستأذن وتنصرف من الباب الداخلي . تتذكر أنك كتمت سؤالاً كان يلح عليك . تسري غيمة التسليم في عينيك وتثني ذراعيك على صدرك وتشبك كفيك على موضع القلب . تغمض عينيك وتترك الذكريات والمرثيات وأبيات الشعر تتزاحم عليك كالفراشات السود ، تحاول أن تطردها عبثاً فيجذبها الحريق المتوهج في صدرك . « وضع النطع على السكة والغيلان جاءوا » . تزاحم حولك « كهان الأروقة الكَذَبة . اصطفّوا حولك كالدببة . تلاغوا بالكلمات الرواغة كذباب الحانات . لما سكروا سكر الضفدع بالطين انطلقوا في نبرات مكتظة » . وتسلّوا بترامي الفقاعات القذرة والألفاظ الفظّة ، لاكوا لحم الكلمات المطعون ونهشوا لحمي ، باعوا أنفسهم للأصنام الكذبة واتهموني أني بعت لهم نفسي . آهٍ ماذا أجدت كلماتي حتى تقتلني الكلمات ؟ ماذا أجدت رحلة عمري في أعماق البحر ؟ أخرجت لآلىء أهديها للفقراء البسطاء ، طيّبة بيضاء ولامعة وبلون القلب ، جاء الغيلان العشرة والغيلان الألف ، غاصوا في مستنقع ألفاظ وشعارات عفنة ، رجموني بالألفاظ وطعنوا قلبي بسيوف الكلمات النتنة . ـ « عجزت عن عوني معرفتي ، لم تنفعني فلسفتي » ، كُسرت راياتي ، وتهاويت إلى القاع أمام الزوجة والأطفال وحيداً عرياناً ـ ماذا أفعل ؟ ماذا يبقى لي من تعبي الخاسر ؟ هل يسلم حتى الشعر ؟ ينتفض الطير الأسود وينادي الجرح على السكين » . تتسلّل الممرضة على أطراف قدميها وتقترب من السرير وتنظر اليك . تسأل هامسة : هل نمت ؟ تفتح عينيك وتهم بالنهوض فتشير اليك ألا تتحرك . تعقد حاجبيك وتزمّ شفتيك وتهز رأسك وأنت تقول : « تصارعتُ والهول وجهاً لوجه ، ولكنني ما عرفت الفرار » . . .

***

- ٤ -

لا بد أنك نمت قليلاً بعد خروج الممرضة . فها أنتذا تفتح عينيك ، تفركها ، تحسُّ أنها محمرتان كعادتها عندما يؤلمانك . ولا بدَّ أنك حلمت بأنك سفينة يهدهدها الموج ، وتشتد عليها الريح فتخرق ويغطيها الماء . هل رأيت أيضاً الفيران تهرب منها ، وهل شعرت بمحنة الربّان الذي يكون ـ هو والفنان ـ آخر من يغادر السفينة الغارقة ؟ لا بدّ أنك كنت تنتفض غضباً وتدق أجراس الخطر وتتحدى الموج الذي يرتطم على جسدك وينثر رذاذه الملحيّ البارد على ملابسك

ويزمجر سخطاً لأنك لا تخضع لمشيئته . فها هو صدرك يرتجف ، والموجة إثر الموجة تتصاعد في داخلك وتضغط على رقبتك وتريد لو تطفر من عينيك وأذنيك ، وجسدك كله يستحم في مائها وملحها . تفتح عينيك على الجدران البيضاء الخرساء ، تتحسس حديد السرير البارد ، تطل من النافذة على كتل الليل المتراصّة كجبالٍ سوداء ، تهمس في سرك : « الله لا يحرمني الليل ولا مرارته » ، تتمنى لو يسعف مولاك الشعر فتمسك باللحظة وتكبلها في قيد الوقت ، كي تتأملها في خلوة أو تسمعها في صمت . لكن الشعريفرّ ويوغل في الوحشة ، فتلجأ الى خزانة ذاكرتك التي لا تحفظ منه كثيراً . وتحاول أن تسند ظهرك على الأعمدة الخلفية أو تعدل من وضع المخدات تحت رأسك فيقعدك العجز ويشتد لهاثك وتضطرب الموجة في صدرك وتفور . وتحرك شفتك التي لم يبلغها القيد ولم تثقلها الأصفاد وتوشك أن تبكي على الجسد المهزوم لولا أنك تنكر هذا الضعف على نفسك : « لكنني مجرب قعيد ، على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامة ، أكسبني التعتيم والجهامة ، حين سقطت فوقه في مطلع الصبا » . تحاول أن تتقلب على جنبك لتضغط الشوكة التي عادت تؤلمك ، وتحاول أن تثني الذراع وتجسّ بيدك سطح الموجة التي ترتفع وتلطم حاجز الضلوع ، لكنك تفاجأ بأن الذراع لا تستجيب لارادتك ، وأن العزم لا يصل إلى الاطراف. رباه! أهو الشلل؟هل تتحقّق نبوءةشعري أم نبوءة قدري ؟ هل أقضي ما بقي من العمر قعيداً يجترّ تجاربه المرّة ؟ ـ تلقي بصرك للسقف والحائط وزجاجات الدواء والحقن المرصوصة على المكتب، تصدم أنفك رائحة أسنة صماء لا تعرف كيف تسمّيها :هل الخاطر أيضاً ؟ » تتطلع من جديد عبر النافذة التي لا ترى منها نجماً ولا سماء ولا قمرا. ماذا كنت أريد من الدنيا ؟ كنت أريد : أن ألبس هذا الكون الأعمى ثوب المعنى ، وأنغّم هذا الزمن الموحش موسيقى . كنت أريد : أن أجعل من نثر الأيام المتشابه شعراً يبقى . أن يحلو الانسان بعين الله ويكبر حُرّاً ، يزهو بالتاج على رأسه، بالصدق النابع من نفسه. أردت أن أرى النظام في الفوضى ، وأن أرى الجمال في النظام . وكنت نادر الكلام . وتطيل النظر وراء النافذة لعلك تبصر خيطاً مختبئاً خلف حجاب الغيم ، لكنك تحمد نعمة ربك إذ أعطاك الليل ، الليل الغارق في بحر حداد في بحر سواد في بحر الصمت الموت ـ ينتفض صدرك عندما تتردد الكلمة الأخيرة بصوت يفاجئك . يفتح الباب وأنت تردد بينك وبين نفسك بينما تسحب نظراتك من الليل والنافذة والنجوم التي لم ترها والخيط الذي لم تهتد اليه : « تعالى الله هذا الكون موبوء ولا برء ، تعالى الله هذا الكون لا يصلحه شيء ، فأين الموت ، أين الموت ، أين الموت » ؟

***

ـ ٥ ـ

يدخل الطبيب الذي كان عندك منذ قليل على عجل . تتابعه بعينيك كأنك تتحقّق منه : أسمر طويل ونحيل ، على وجهه وجبهته صرامة وجدية لم تلحظها من قبل . يهتف وهو يستدير : تفضل يا دكتور . من فضلكم انتظروا بالخارج . تطلّ رؤوس تعرفها وان لم تظهر من الباب الا لحظات خاطفة . تلمح القلق على وجه الناقد والشاعرين . تتمنى لو تنادي عليهم أو تطمئنهم فلا تقوى على إخراج كلمة واحدة . يدخل رجل ناصع الوجه مستديره ، تسبقه نظارات تلمع كالبرق بين اطارين من السحب السوداء . تظهر أسنانه البيضاء التي تنفرج عن صوت جهوري ضاحك : الشاعر الكبير؟ لا بأس عليك . ترفع حاجبيك دهشة فيرتفع الصوت وتعلو الضحكة : طبعاً ، أنت لا تتصورُ أن الأطباء يعرفونك . ها أنا جئت يا سيدي لأسمع نبضات قلبك بعد أن قرأتها . . يقف الطبيب الأول بعيداً ويقدمه اليك : الاستاذ الدكتور . . . أخصائي القلب المعروف . ينهره الثاني باشارة من يده ، يقترب منك ويسبقه نور أسنانه وابتسامته العريضة الصافية تحاول أن تبدد الدهشة التي عقدت حاجبيك وتهمهم : أهلاً و . . ولكن الصوت يتهدج ويخونك . ينطلق الطبيب قائلاً : أرجوك لا تجهد نفسك . حتى الكلام ممنوع الآن . أليس غريباً أن أطلب هذا من شاعر ؟ يفتح حقيبته بسرعة مذهلة وفي لحظة تتدلى السماعة على صدره . يقول وهو يمسح على يديك ويمرُّ بهما على رأسك المشتعل بتاج الثلج : أرجوك . لا تتكلّم أبداً . هذا أغرب أمر يوجه إلى شاعر . أليس كذلك ؟ قل لربة الإلهام أن تدير وجهها قليلاً ، أو فلأقل أنا ذلك . سأعمل كل شيء والرَّب يدبر ما فيه الخير . فرصة سعيدة إن شاء الله . هل تعلم أنني كنت أتمنى أن أراك من وقت طويل . أي والله . قرأت كثيراً من شعرك وأنا طالب وما زلت رغم مشاغلي أقرأ فيه ، هل أفضي لك بسرّ ؟

تبتسم وأنت تحسّ أصابعه تدقّ على صدرك ببراعة وتلمس برودة السماعة وهي تلهث صاعدة نازلة على جلدك . يأمرك بصوت رقيق أن تسعل ، أن تزفر ، أن تشهق بقوة ، أن تأخذ نفساً آخر فتمتثل برغم الاعياء المسترخي في أطرافك وعروقك . لا تفارق الابتسامة الشاكرة فمك وأنت تتابع ثرثرته الحبيبة وتنظر بحب إلى قسماته الوديعة الطيبة . يستطرد حديثه كأنه يتلو تعويذة ساحر يحاول أن يخرج جنياً عنيداً من جسد مريضه : هل تعلم أنني . . أقصد أنني لم أكتف بقراءته والحياة معه . لقد ساعدني أيضاً على الحب . طبعاً تتعجّب . أقول لك السر وأمري الى الله ، باختصار أحببتُ بشعرك .

تسرح عيناك وتبتعدان عن وجهه قليلاً . تغيم سحابة عليها وتقول لنفسك : « الشعر زلّتي التي من أجلها هدمت ما بنيت . من أجلها خرجت » . من أجلها في أول المسا طعنت ، وها أنا أعرض قلبي الذي أوجعني حتى بكيت ، قلبي الذي . . .

تلاحظ أن الطبيب يترك السماعة على صدرك ويتجه إلى زميله مقطب الوجه . يتبادل معه الكلام المتدافع كقطرات المطر المفاجئة بالانجليزية ، وتلتقط أذناك كلمة القلب التي تتقطر فيهما كالحديد

المصهور . يخرج الطبيب الأسمر النحيل مسرعاً ويغلق الباب وراءه . يرجع اليك الطبيب وهو يرسم الابتسامة نفسها على شفتيه وملامح وجهه الذي لا يخفي الانزعاج . يستأنف كلامه وهو يواصل كشفه الدقيق ويسرع فيه اسراع النبضات التي بدأت ترتجف وترجّ صدرك : باختصار يا سيدي أحببت بشعرك وتزوجت أيضاً . . « وجه حبيبي خيمة من نور ، شعر حبيبي حقل حنطة » . نسيت بقية الأبيات . أرجوك لا تجهد نفسك . والآن انقلب على وجهك حتى لا تتذكر فتثير في نفسي حسرات الحب . نعم هكذا . لم تصدق أول الأمر ، أحضرت لها الكتاب المقدس وقرأت معها في نشيد الإنشاد . بالطبع لم أنسب الشعر لنفسي . معاذ الله من الكذب . انما أثبت لها أن الحب نبع خالد ، يلهمك ويلهم صاحب النشيد ويلهمني أيضاً . . ساعدني شعرك أيضاً حين أردت أن أعزّز حبي وقلت لها عن ظهر قلب : آنستي - لم تكن قد أصبحت سيدة بعد - « اليك قلبي واغفري لي ، أبيض كاللؤلؤة ، وطيب كاللؤلؤة ، ولامع كاللؤلؤة ، هدية الفقير للفقير » - ولا تسل عن تأثير صوتي وأنا أقول أبيض وطيّب ولامع ، وأقدم لها قلبي في ليلة لا أنساها ، واتفقنا فيها على كل شيء . . أليس غريباً أن أصبح طبيباً للقلب وأن أُستدعى الليلة من نومي لأعالج قلبك كما عالجت قلبي ؟ . استدر الآن . خير إن شاء الله . إن شاء الله خير . كم اليوم من أيام المسيح ؟ أعني في أي يوم نحن ؟ ينظر في ساعته بسرعة . يخطف الكلام ويقول : الخميس . نعم . ثم يفرد تقطيبة حاجبيه وجبهته ويسأل مبتسماً : اليوم الثامن من أيام الاسبوع الخامس في الشهر الثالث عشر . الحق أني لم أفهم ما قلت تماماً - تنتزع ضحكة خافتة من أنياب الحزن وتقول رغم أوامره المشددة : وأنا لم أقل شيئاً . إنه بشر الحافي لشيخه بسام الدين . . .

يصفق بيديه . معذرة لا وقت لدينا ، سنتفاهم في الغرفة الأخرى حول . من قلت آه . . أرجوك الصمت لا داعي للاجهاد أو الحركة . أنت تقدر بالطبع . وستبقى يومين عندنا . يبدو الذعر على وجهك ويثب من عينيك . تهم بأن تسأل أو تعترض فيشير بيده اشارة حاسمة : اطمئن . اطمئن تماماً . اجراءات عادية نعملها كل يوم . تهم أن تحرك شفتيك وترفع يدك فيؤكد إشارته : أعرف أعرف . سنبلغ الزوجة الكريمة والأولاد . لماذا لا تريد أن تشرفنا يومين ؟ على الأقل نتكلم عن الشعر ونتعرف على الشيخ . . الشيخ . . يسرع إلى الباب الداخلي ويفتحه ، يغيب لحظات تنشغل فيها بنفسك وتناجي بشر وبسام الدين . . ها أنذا مقتول يا شيخيّ . في اليوم الثامن من أيام الأسبوع الخامس للشهر الثالث عشر . مقتول وبلا قطرة دم . واللفظ القاتل ذو ألف لسان تقطر سماً . لفظ يرديني وبلا قطرة دم . والسكين الألفاظ تشقّ اللحم . أي زمان هذا ؟ لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله . وأقول لنفسي : يا ليتك كنت خرجت من مدن الموتى يسكنها جيل مات قبيل الموت . يا ليتك كنت ببشر الحافي في الصحراء لحقت ، يا ليتك كنت لزمت الصمت . فتحسَّس رأسك . فتحسَّس رأسك . . .

***

- ٦ -

تتحسس رأسك بكفّ مرتجفة . تتطلع للنافذة وتشعر أن الليل المتربص يحصي من مكمنه الأنفاس . الليل القبر يمدّ غطاء الكفن على الناس . تهتف : يا رب الكون المشؤوم . أدركني فالليل طويل تنعق فيه البوم . ها هي تصرخ وهي تحوم : جرّوك لبئر الكلم المسموم ، تركوك وحيداً تغرق وتئن أنين يتيم . رجموك بلفظ كالحجر رجيم . كلمات في كلمات تنهمر كشلال هادر ، نسجوا منها حبلاً يلتفّ على رقبة شاعر . ورأيت الدنيا مولوداً بشعاً فتمنيت الموت . والآن تنام وحيداً على عنقك تلتفّ حبال الصمت . يا ليتك كنت لزمت الصمت . . يا ليتك كنت خرجت . . .

وتعود تتحسّس رأسك عندما ينفتح الباب فجأة ويدخل الطبيبان والممرضة التي تسحب وراءها محفّة تدور على عجلات . ويلمحك الطبيب فيهتف : ألم نتفق على عدم الحركة ؟ ويقترب منك وهو يجاهد أن يفرش ابتسامة على فمه : ألا يستمع الشاعر مرة واحدة لربة الطب والشفاء ؟ - ترنّ الكلمة الأخيرة في أذنك رنين قيثارة مجروحة على جبل بعيد . تتطلّع للوجه الطيّب الضحوك بنظرتك المفعمة بالتعاسة والسخرية . يتقدمون نحوك وهم يحذرونك من أي حركة ، ويلفّ الطبيب الشاب ذراعك حول عنقه ، ويدخل طبيب القلب ذراعه تحت خصرك ويحملك الى أعلى ، بينما تحاول الممرضة أن ترفع ساقيك بحذر وتنزلها على المحفّة الواطئة . تنغرز الشوكة عميقة في القلب . يهم الطير الأسود أن يرفرف بجناحيه وتتسع عيناه دهشة ورعباً . تتردد كلمة القلب فتتذكر بيتاً قديماً وثب الى صندوق الذاكرة منذ قليل : « أشقى ما مرَّ بقلبي أن الأيام الجهمة ، جعلته قلباً جهماً . . » .

تخرج المحفّة الى القاعة الواسعة فتسرع الخطى نحوك . هادىء أنت والليل والطارق المجهول والأصدقاء مسرعون . يتسابقون بجانبك وعينك ترعاهم وتطوف بوجوههم وتحاول في صمت أن تمسح عنها آثار الذعر . يهمس طبيب القلب للشاعر الذي اقترب منه هو والناقد : غرفة الانعاش . يبتعد قليلاً ويسرُّ اليهما : أزمة حادّة في الشريان . سأعمل ما في طاقتي . يهز رأسه كثيراً وهو يلاحق المحفّة ويؤكد لهما : العمل عمل الله . لا بد من إجراء سريع . نعم لا بدّ من حضورهم نعم . إن شاء الله . تلمح القلق يطلّ من العيون فتقول وأنت تحاول أن تمدّ يدك لتصافحهم فلا تستطيع : ما لكم . شدّوا حيلكم . . يحذّرك الطبيب وهو يعدو خلفك . يخبط الناقد كفاً بكف . تطفر الدمعة من عينه ويسند وجهه على الحائط . تبتعد المحفّة وما زالت نظراتك تلمسهم وتجفف دموعهم وتزيل غبار الذهول

عنهم . تكاد النظرات تقول : « وما الانسان إن عاش وإن مات ـ وما الانسان ؟ وهل من مات لم يترك له رسماً على الجدران ، وخطاً فوق ديباجة ، وذكرى في حنايا القلب . وما الانسان إن عاش وإن مات وما الانسان ؟ » .

***

- ٧ -

أنذرني من قبل أن يجيء . . .

رفقاً يا قاضي الوقت . مهلاً يا ملاح الموت . يا من تعبر نهر الغربة والنسيان ، أنظرني حتى أعزف بعض الألحان ، أو أشرب نخب العمر على مأدبة الخلّان ، وأودع من أحببت وأختم آخر فصل في مأساة الأحزان ، وأقوم خطيباً فيهم : إخواني . . يا من كنتم أغلى الاخوان ، أسألكم ، أسأل نفسي : من نحن وماذا نبغي ، ما الانسان ؟ واذا كان الانسان هو الموت فما معنى أن نولد ونشيب ونُلقى في الأكفان ؟ واذا لم يكن الانسان هو الموت فمن كتب عليه القسوة والحرمان ؟ من أوقفه كالمسجون أمام السجّان ؟ ان كان الانسان هو الموت . . .

تسرع المحفّة على عجلاتها وبجانبها الطبيبان وخلفها الممرضة الصغيرة لاهثة الخطى والأنفاس . أرقد في سكون وذراعي هامدة وأصابعي تتحرك شوقاً للقلم وللأوراق . هل فات الوقت ؟ هل أزف الموعد ؟ أنصت يا طير الموت الأسود . أسمع دقات الطبل المرعد ، تعلو تهبط تدنو تبعد . أنصت يا طيري الهاجع في عش القلب المجهد . فالنغم الهارب يتردد حيناً ثم يبدّد ، يتكسر فوق زجاج القلب ويخمد ، يجمع أشلاء نشيد ضاع من المنشد : « أنذرني من قبل أن يجيء . . تراب لونه الرديء » . . أنذرني ولم أصدق نذره . . أنبأني ولم أحقق نبأه ، رأيته على الدوام يخفي عينه المختبئه ، في طرقات المدن المهترئه ، وفي حنايا الأعين التي تنم عن قلوب صدئه . . أنذرني من قبل أن يجيء . . لم أنتبه لوقعه البطيء . . هل آن أن تدهمني خيوله المفاجئه . . ترتفع دقات الطبل الخافت حتى تصبح كدويّ الرعد . تتلبّد سحب الغبار أمام عيني وتبرق حوافر الخيل . دقات القدر الغامض أم دمع القمر على صدر الليل ؟ تسرع المحفّة وتسلمني من درب مجهول إلى درب مجهول . تهبط من كون علوي في كون سفلي . يا ربّات القدر الرابض فوق العرش . تغزلن خيوط العمر وتصنعن نسيج النعش . مهلاً يا ربّات القدر ولا تقطعن الخيط الهش . . لا تزعجن الطير الراقد في العش . .

تشيعني النظرات الكابية والنظرات الحانية . يا أمي أين تراك الآن ؟ ضميني واحميني من شر العين . وأنت يا حبيبتي الحنون . حبيبتي يا من دعوتها أغلى من العيون هل يسعفك الوقت ؟ أم يبلغك رسول الموت بأني متّ ؟

آهٍ أزف الوقت ، ضاع الوقت . .

لا تعجل يا ملّاح الموت باغراق سفينتي ، الجرح ينادي السكين فلا تَكُ أقسى من سكين .

أتقول بأن الموت علينا مقدور ، ذلك حق . لكني أرفض هذا الموت الباهت حتف الأنف .

كنت بسالف أيامي قد صادفني هذا البيت : الانسان هو الموت . لكني لم أقبل أبداً أن يصدق هذا البيت . فتمرّدت عليه وثرت . ودعوت الله بأن يرفع عنّا زمن الموت ، أن يقسو كي نزدجر علينا ويعلمنا أن نتمزق إرباً ، أن نتفتّت ، حتى لا نمْثُل للموت ، حتى يخرج من بئر الماضي الاسود طفل المستقبل ممتطياً مُهْر الوقت ، ويجوز بقافلة الموتى أرض الموت لأرض تبزغ فيها شمس الحرية في السَمْت . .

عجِّل يا ملّاح الموت ولا تخشَ القدر أو المقدور . إن تبدُ جبال الملح أمامك والقصدير ، فسنحيا في أطراف الألم ونبلغ شطَّ المحظور ، ونجرّب لحظة رعب قاسٍ مرٍّ ومرير ـ حتى نرسو في جزر النور ، نرسو في جزر النور . . .

تقف العجلات على باب الغرفة . تفتح عينيك على النور الباهر ينهمر من السقف على الأركان . تهتف من قلب خنقته أمواج الظلمة والصدفة : أواه يا مدينتي المنيرة . . .

***

- ٨ -

مدينتي المنيرة . . .

« مدينة الرؤى التي تشرب ضوءاً ، مدينة الرؤى التي تمجّ ضوءاً » . تلوح بعد طول الانتظار . تكشف عن نجومها وراء الغيم والضباب بعد رحلة العذاب والدمار . يا كم خرجت بحثاً عنك كاليتيم ، مطّرحاً أثقال عيشيَ الأليم ، وملقياً وراء ظهري بالأنا القديم . أقول كلما بدت أبراجك الحسان والمنار ، ولوّح الملّاح سيد البحار ، للمركب الذي أضنته طلعة الشموس والأقمار ، ورحلة الضياع في عيون الليل والنهار : « حجارة أكون لو نظرت للوراء ، حجارة أصبح أو رجوم . . » هل آن أن أرسو على شطوط الحلم ؟ أأنت يا مدينة الجمال والجلال وهمٌ ؟ أم أنت حقٌ ؟ أم أنت حقٌ ؟

أرقد في فراشيَ الكليم ، عريانَ كاليتيم ، مجرّداً من النقوش والألقاب والرسوم ، تطوف في خياليَ السقيم حلميَ العقيم حلميَ القديم ، أن تفتح السما أبوابها عن نبأ عظيم . . « وها أنذا أستدير بوجهي اليك ، وأبكي لأن انتظاري طال ، لأن انتظاري يطول » أيا أملاً قادماً من وراء الغيوم . أغيب في غياهب الضباب والدخان ، أسأل عنك النسر مرة والأفعوان ، وأسأل الشيوخ والكهّان ، عن شاهد يدلّ عن صداك في الزمان أو خطاك في المكان . . وبعد رحلة

العذاب في البحار والقفار ، وبعد طول الانتظار ، أراك يا مدينتي زاخرة الأنوار ، أُبعَثُ من تابوتيَ القديم في مدافن التذكار ، أُبعَثُ فوق صدرك الطهور كالأبرار ، أرضع من نهديك نور العدل والحريه ، أطعم من كفيك خبز العدل والحريه . . بعد طول الانتظار . . بعد طول الانتظار . . . .

تتزاحم السحب عليك فترفع يدك محاولاً أن تبعدها، تتصور أنك راع يحمي بعصاه القطعان الطيبة من الذئاب . ينتهي اليك صوت الطبيب محذراً كأنه ينفذ من أستار الضباب : أرجوك . . أرجوك . . تنظر من خلال الغيم المتناثر حولك كالقطن ، تندهش وتعجب مما حولك : أجهزة تلمع في أيديهم ، وعقارب تجري وتدور ، أكواب وأنابيب وخراطيم يستقر أحدها في فمك ، يخرج منها ليدخل في فتحة أنفك تتنفس عطراً أزرق ، وتحوم فراشات حول الأنوار - ربّي - ما هذا النور !

يعملون يعملون صامتين . أيديهم تغزل ثوبي المسحور . أفواههم نادرة الكلام . كذا يكون الناس في مدينتي المنيرة - كذا يكون الناس في بلادي جارحين كالصقور . لا لا . كم جرحوني في زمان غابر قديم . كم غرزوا السكين في فؤاديَ الكليم في فؤاديَ اليتيم . لكنني أسامح . أغفر زلّة اللسان والعيون والجوارح . ورحلة العذاب علّمتني الصمت .

أهل بلادي طيبون . قد يجرحون كالصقور ، يقتلون ، يسرقون ، يشربون ، يجشأون . « لكنهم بشر . ومؤمنون بالقدر . وحين يسغبون يطعمون من صفاء القلب . وحين يظمأون يشربون نهلة من حب . ويلغطون حين يلتقون بالسلام . عليكم السلام . عليكم السلام . ففي ذُرى بلادنا ترفرف السلام » . ومن ذُرى بلادنا يرفرف السلام . أهل بلادي طيبون يعملون صامتين . وفي مدينة الأنوار يعشقون يعرقون يزرعون ، وحين يملكون ، إرادة الانسان أن يكون ، لن يشغلوا أنفسهم بالموت والقضاء والقدر ، ولن يحدّقوا « كعم مصطفى » في لجّة الفراغ والسكون ، سيفرحون يضحكون يرقصون في مواسم الزواج والحصاد والمطر ، وعندما يجيء الموت لن يخافوا طلعته ، فالحب - يا حبيب - قد أزال شوكته ، ومرت الحرية الخضراء فوق جرح العدم المهين ، وها هو الجرح القديم يتحدّى طعنة السكين . .

تتحرك شوكة ألم في صدري . تطفو الموجة بعد الموجة توشك أن تغرقني . يبغي الطير الأسود أن يخرج من حلقي . يبغي أن يخنقني . ها هو ذا ينهض ويرفرف . ها هو فوق الجرح يحطّ ويسقط . إهدأ يا طيري الأسود ، أبعد منقارك عن كبدي . وآختر غصناً آخر من شجرة جسدي . إهدأ أرجوك ولا تنقر في حبّة قلبي . دَعْني أجمع ما يتناثر من حطبي . أجدل من شعري عشاً ترقد فيه بجنبي ، وتعال لنصنع نغماً يشجي قلب طبيب يأسو قلبك ويداوي قلبي . إسمع يا طيري غنوة حبي :

« العالم الذي أريد . أريد للرجال أن يعانقوا الرجال دون حقد . العالم الذي أريد . أريد للنساء أن يغفين وادعات ، في أذرع الأزواج والأحباب والأبناء ، العالم الذي يصبِّح الأطفال ، نورة الأمل ، بنُغْية الحنان والدمى وبالقبل . العالم السعيد ، راحة الأجيال ، في سعيها قوافل الأجيال نحو عالم سعيد » . انظر يا طيري الأسود ! هل تلمح نور مدينتنا - نور المستقبل ؟ « الزمن الآتي بالنجمين الوضائين على كفيه : الحرية والعدل . الزمن الكاسر للذلّة والظلم كما تنكسر زجاجة سُمّ ، تتفرّق شظيّات لا يلتمّ لها شمل ، الزمن المطلق للأنسام لتحمل حبات الخصب السحرية ، وتفرّقها في أرحام حدائقنا الجرداء المختومة بالعقم » . هل تشهد هذا الحلم ، أتلحظه لحظ العين ؟ أم تحسبه رؤ يا الغارق في قاع النوم ؟ يا طيري الأسود قم . هل تلمح مدن الأمل وراء الغيم ؟ أم هي وهم ؟ أم هي وهم ؟ . . . .

تتكاثف سحب عاتية تصدم رأسك . يتخلّلها برق لا يلبث أن ينطفيء ويطفيء حسّك . تتجمّع سرباً من قطعان بيضاء وسوداء ، سفناً ترتطم على الشطئان وتتفتت في الخلجان ، وتصارع جبل المردة والحيتان ، تهرب منها الفئران ويبكي البحارة لكن يبقى الربّان ، يبقى الربّان ، وحيداً يكشف للريح الغاضب ستر الصدر العريان ، يحمل بين يديه المصباح الواهن فوق الطوفان - يا هذا الربّان ! يا هذا الربّان ! اغرق الغرقى قبل الغرق وسقطوا في القيعان ، هرب البحارة والفيران ، والجرس المعول من ناقوسك لن تسمعه الآذان ، انقذ نفسك يا ربّان ، أتمثل دور الفرسان المحزونين الشجعان ، ذهب الفارس والفرس وغطاه رماد الأزمان ، يا ربّان ! يا ربّان ! ماذا تصنع وحدك يا ربّان ؟ !

- أنتظر الزمن الآتي بالسيف المبصر والميزان ، لأزفّ النور لركب الشجعان وأضع التاج على رأس الانسان الانسان . . .

تطفو فوق الموجة ، تتشبث بالسرج المزبد والموجة فرس رهان ، تنزلق على ظهر العالم ، تهوي تهوي في كهف لم تسكنه الجان ، كهف سكنته الغصّة والأحزان ، يتصاعد منه دخان ، يتصاعد منه دخان . . . ترتفع على ظهر الموجة ، تتنفّس فوق الماء كأنك سمكة صيد فرّت من وجه الحيتان ، هربت من شبكة صياد كي تقع بشبكة صياد ثاني ، تختنق وتسقط في القيعان ، تتأمل جسدك يهوي في بئر أحمر قاني ، ينتفض ، يحاول أن يهرب منك ، تتماسك ، تلقف حبلاً يمتد اليك كثعبان ، تخرج من قاع البئر وتتجول وسط حقول ومغاني ، تلمح شبحاً ، أشباحاً تدنو منك فتهتف يا أصحابي ، يا أحبابي ، أتراكم غبتم عني وتخلّيتم يا خلّاني (تهتف تصرخ لن يسمعك الجيران ، لن ينتبه لصوتك قاصٍ منهم أو داني) .

الطبيب يتمتم : ربِّي ! ربُّ الميلاد ورب الموت . ويراقب أنفاسك ويعاين نبض القلب . الطبيب الآخر يتأمل وجهك ويهمس : يا

رب . الممرضة تذهب وتجيء ، تحرك أنابيب وتحضر أنابيب وتنشج : يا رب وأنت تطفو على الموجة وتنزلق . تمتطي ظهرها وتسقط . تمسك بلجامها الفضي ويفلت منك . تتزاحم الأشباح حولك . تقرب وجوهها من وجهك . تعرفها ، تتفرس فيها ، وتناديها بالصوت المفعم بالكتمان :

إليَّ إليَّ . يا حلّاج . ثبّت قلبي يا محبوبي . يا سيدنا القادم من بعدي . أدركني أو لن تدكرني بعد . يا ليلكة الظل ، أميرة روحي ، وجروحي . تنتظرين ؟ ماذا تنتظرين ؟ يا عشريَّ السترة ! مدَّ يديك وأظهر لون القدرة . اصبر يا طير الموت الأسود . نَقِّر في صدري لكن ابعد منقارك عن قلبي . أمي يا أمي ! أين تراك وأين أبي ؟ نادي ياميٌّ عليها لتكون بجنبي ، يا شجرة عمري نور العين رفيقة دربي ـ غطّيني ضمّيني مدّي كفّك داوي قلبي . تهوي في لجج الإغماء ، يشحّ الضوء ، وتبتلع الملح ، تعضّ على لحم السرِّ الهارب كالسمكة في الماء ، تدخل من حال الصحو إلى حال المحو وتلمس قلب الأشياء ، تصبح خمراً ، خبزاً أسمر ، نوراً ، خصلة شَعْر ذهبي ، أرضاً وسماء . تختنق بسرّك وتعضّ عليه ، تصرخ ـ من يسمعك ؟ ـ اليَّ اليَّ ! تعالوا يا أحباب ، يا أصحاب الدرب ، رفاق الجرح ، اليَّ اليَّ . .

يا أحباب . . يا أحباب . . . .

***

- ٩ -

تنفرج أسارير الطبيب قليلاً . يأخذ نفساً عميقاً يكشف الغمّة التي أطبقت عليه وكادت تنسيه أن يتنفس . يراقب جهاز القلب ويحصي الأرقام ويبتلع الغصّة فتغيب كحجر في الدوامة . يلتفت لزميله الذي يقف عند طرف الفراش كحارس ليلي صامت ويهز رأسه . يتطلعان لوجهك ويرقبان النفس الذي يصارع التيار ويطفو على السطح . تلوح بارقة أمل خفي . تفتح عينيك وتنظر حولك ثم تغمضها . وتتمتم شفتاك بصوت لا يسمعه غيرك : إليَّ إليَّ . . .

- ها أنذا بين يديك . . .

- الأميرة ؟

تدخل كالنور الساطع . يتهلّل وجهك وتضيء بعينك ومضة أمل دامع . سيدتي سيدة الجرح الباسم كالفجر الطالع . ترقص شفتك وهي تتابع خطوات الحلم الرائع : « شمس في السمت . . فيض عبير يسري فتبلّ نداوته جدران الغرفة » مولاتي . . .

تهمس شفتاها : مولاي الشاعر !

- « يتضوأ نحرك . حقل ليالك مرشوش بالنور . ويزغرد شعرك . خمر تنسكب على صفحة بلور » .

- شكراً . هل تذكرني ؟

- « إن أنس فلا أنسى ثوبك . صفحة فضّة ، تتمرّغ فيها شمس الصيف . ان أنسَ فلا أنسى جيدك . كومة ماسٍ يتكسّر فيها النور ويلتمّ » .

- « ليلكة الظل أنا . عابدة الظلام » .

تكمل نغماً يترقرق منها : « الزهرة التي تخاصم السنا وتعشق القتل » . ما زلت كعهدك والوجه حزين . ما زلت كعهدك تنتظرين ؟

- لا أنتظر سواك . هل ينسى العابد معبوده ؟

- من أنا حتى تنتظريه ؟

- من أبدعني وبراني هل أنسى من سوّاني ؟ مَنْ من عدمٍ نسج كياني ؟

- يا خالق سرّي وبياني . قم لتراني .

- خالقك كسير عاني . ملقى كالعدم الفاني .

- ترخي جفنيك كأنك مهموم . في وجهك تتمدّد غيمة ضيق مكتوم . هل أبطأ وحيك ؟

- بل أبطأ نبض القلب وضاع يقيني . أترين شحوبي وغضوني ؟ أسمعت أنيني ؟

- ولهذا أشفقت عليك . خِفتُ خطاه تسبقني ويجيء اليك .

- من تعنين ؟

- من قتل الزهرة ورماها في الظل سنين ؟ من ألقاها في جوف التنين ؟ من خيب أملي ، كذب عليَّ ومرّت كذبتُه فوق مدينتنا كالإعصار المجنون . أنسيت سمندل ؟

- أنساه ؟

- عشت حياتي أمقته وأعرّي وجهه .

- لن تنفعه أقنعته . سأعينك . .

- لا شيء يعين ـ لا أحد يعين ـ عاجزة أنت كشاعرك المسكين . .

- لن يخدعني الليلة ، سأواجه ظلّه . .

- سبقتك خطاه ومدَّ على صدري ظلّه . عشت سنين العمر وعيني تتحدّى عينه . أتسمّع وقع خطاه كعابر ليل يسمع خطوات القتله ـ لا أتذوق كأساً حتى ألمح فيها نصله . وكما يتوقع عارٍ في طرقات الليل الصدئه ، أن يدهمه المطر الهاطل فجأة ، أتوقع منه أن يأتي الليله ، كالدائن يطلب دينه . .

- لن نتركك وحيداً . وقرندل لن يتأخر . . . ها هو ذا . .

تجري نحو رجل يخطو في ضوء الغرفة كخيال بطل مهزوم . رجل رث الهيئة ونحيل ، عليه تراب الفقر والسفر ، في فمه المتحدي أغنية لا زالت تتشكل . تسرع نحوه هاتفة :

- ها هو مشاهد مأساتي .

تمسح نظراتك وجهه الذابل وعينيه الصامتتين وتمر على القيثارة المتدلية من كتفه وتبتسم :

- وأنا من يشهد مأساتي ؟

ـ يخلصنا منه قرندل . ثق من قولي . فالشاعر يخفي الخنجر في سترته وسيغرزه في صدره . تتحسس صدرك وتقول :

ـ أم في صدري ؟

يقترب قرندل منك يلمس سريرك كما تلمس أم مهد وليدها . في عينيه الصامتتين حنان نبي يعرف قدره . غضب المنتقم يصمم أن يأخذ ثأره . يمر بأصابعه على القيثارة فترن خفقات لحن شجي وترفرف في جو الغرفة . يرفع عينيه كأنه يتابع سرب طيور مغردة ثم يخفضهما لتلتقيا بعينيك .

ـ الكلمة أيضاً يمكن أن تقتل . . .

تدير عينيك الغاضبتين تجاه الحائط وتعضّ على شفتيك ، يأتيك صوته :

ـ أغنيتي أقوى منه ـ لحني من خنجره أرهف . تعرف خيراً مني سرّ الكلمه ، والكلمة أمضى من حدّ السيف .

تتردّد أصداء غضبك وتصطدم بالجدران ينتفض جسدك ويهتز رأسك وتتمتم :

ـ كذبة ! قتلتني كذبة !

تتفجر حمم الكلمات في صدره وتسيل صرخة من فمه :

ـ لن نسمح أن تتجدّد تلك الكذبه . لن نترك تلك الحية تسحر ألباب الناس وتصبح قبه . طعنت قلب مدينتنا ذات مساء كذبه . فاسترخت مثقلة بالجرح . والليلة . . .

ـ الليلة صرعتني الكذبه ـ هل أجدتني الكلمات ، هل أنقذني اللحن !

ـ الليلة قد تهوي أنهاراً وتلالاً ومنازل لو ولدت في ساحتها أخرى . .

ـ تهوي فوقي وأنا أهوي . . لن يجديني يا شاعر لحنك فارجع . .

ـ دعني ألقي ظلّي في عينيه ، وأغني من أغنيتي آخر مقطع . .

ـ أتغرز النصل بقلبي . لم تدفعه أغنيتك عني . .

تتحسّس صدرك وتئن . يضطرب الطبيب ويمد ذراعه إلى زميله . يشير إلى احتقان وجهك وعينيك ، يسرع بتثبيت الخرطوم الجديد في فمك وبتثبيت عينيه على عقارب الجهاز . تبكي الأميرة وتميل على صدرك تتسمّع نبض الجرح . ذبلت زهرتك الليلية ، ماتت أغنية قرندل . تستجير بالوصيفات فلا يستجيب أحد . تجري نحو النافذة فتصدّها أكوام الليل ، تعود وتندفع نحوك وتندب حظها على صدرك : أو لا يكفيني في اليوم الواحد جرح واحد ؟

يشتاق الجرح إلى السكين . يفزع الطائر الأسود ويفتح عينيه . تهمس وأنت تتملى صفحة وجهها المتألق كالبللور :

ـ جرحي أعمق مما قدّرت ، أوجع مما ظنّت قيثار قرندل . أترين اللصّ الجاثم خلف قناع الليل ؟ لن يفزعه صوت الديك الذهبيّ ولن يطرده الفجر. لن يرديه اللحن ولا الخنجر. آهٍ قد سلَمت. عودي أنت . عودي لحياتك في القصر الورد قبيل آذان الديك . يا سيّدتي وأميرة أحلام العمر . إن يقهرني الموت فكوني أقوى منه ومن ذل القهر . عودي للقصر . كي يستجلي أتباعك طلعتك النورانيه ، ويشم رعيتك نسيم الحريه . فلتسرج أمّ الخير جوادك والعربه لتكوني معهم قبل الفجر . عودي . عودي . وأرعي عهدي ، عهد الشعر . شاعرك قتيل مطروح . دمه مسفوح . فوق رصيف المدن الكاذبة القلب ينوح . عودي يا زهرة دمعي وجروحي . وانضمّي للورد النائم في روضة روحي . لا تنسي قبل ذهابك أن تَهَبي قبساً من نورك أو ظل شعاع من وهج جبينك فالنور شحيح . . تقف الأميرة كالطيف المشلول ، ترفع يديها إلى وجهها وعينيها لتزيح الدمع وتمسح ظل الكابوس . تنعطف عليك . تقبّل وجهك وجبينك وغضون الألم على وجهك وجبينك . تستدير وتنسحب على أطراف قدميها . ينهض قرندل من الركن الذي تكوّم فيه ويجرّ ساقيه وقيثارته الصامتة مدلاة بجانبه كالبلبل الذبيح . يقفز ديك الفجر على جسد الليل الأسود ويصيح . تنفذ سيدة الأحلام المرة في بللور النافذة الشاحب وتعود كما جاءت : باقة نور ، وردة حلم نبتت في بستان القلب المهجور . تثبت نظرتك عليها وتودعها وتقول : سلمت خطواتك نحو القصر . ولترعي يا سيدتي عهد الشعر . موعدنا ؟ لا لا أدري . فقد انحسر النهر : قد ألقاك مع الفجر ، أو في القبر . من ؟ ضيف آخر ؟ لا لا . الوقت تأخّر . أية سر ؟ لا شيء يعين . لا أحد يعين . أيلح عليك ؟ عودي . عودي . يبتهل اليك ويتشفّع بك ؟ فليدخل هذا الضيف الآخر . رجل مجهول مكسور الخاطر ؟ ومسافر ليل جاء يقول : سلاماً لمسافر ؟ آهٍ . . . قد سلَّمت . . قد سلَّمت . . .

***

ـ ١٠ ـ

سلّمت وما سلّمت . . .

فلا تكاد تغمض عينيك وتناجي نفسك ، لا تكاد تتذكر سرّ الأحرف التي جمعتها يوماً وتصفها أمامك ، لا يكاد الطائر يهجع في مرقده ويهدأ في عشه وتأخذ نفساً عميقاً وتفتح عينيك المحمرتين بجمر الألم والوخز والانتظار حتى تراه أمامك : بطل الملهاة السوداء ، ومهرّجها المسكين . رجل لا لون له أو أبعاد ـ الرجل الورقة ، سقطت من شجرة هذا العالم ذات شتاء أو ذات خريف ، لا تتميز من آلاف ملايين الأوراق ، تنمو في رحم الليل ، تحدق في عين الشمس ، تتلوى تحت سياط الريح وترتعش من الحاجة والبرد ، تسقط لا يشعر أحد ، لا تدري الأرض ولا الرمس . رجل رث الهيئة مرتجف الساقين ، أجوف كالقصبة حافي القدمين ، منخوب تصفر فيه الأنواء ، أغنية الموتى الأحياء ـ تتلوى شفتاك اشمئزازاً ، تنوي أن تبعد وجهك عنه ، يستعطفك ويوشك أن يركع ويقبل قدمك . تهتف في غضب : انهض . انهض . .

ـ لا تصرف وجهك عني يا مولاي . لا تحرمني نظرة عطف .
ـ ما تبغي الآن ؟ ما هذا الخوف ؟
ـ ارجوك اسمعني . لا تكسر خاطر ظل مكسور . .
ـ أو لا يكفي أني جسّدتك في الأوراق ، أطلقتك فوق الخشبة وتركتك تعرض مأساتك . . . .
ـ حتى انغرز بصدري الخنجر . لكني الآن عرفت السر . . .
ـ السر . . أية سر !
ـ هل تضمن ألا يسمعنا أحد . . حتى الجدران . .
ـ قل . . لا وقت لديَّ . .
ـ حتى الوقت . . هل يأمن حذر جاسوس الوقت ؟
ـ قلت تكلم . . .
يقترب منك على أطراف قدميه . يتلفت مذعوراً حوله . يرى الطبيبين عاكفين على الأجهزة غارقين في كابوس العمل الذي لا يرحم . يطمئن أن أحداً لا يراه ، وينحني ويهمس في أذنك :
ـ بعد فوات العمر كشفت السر . التهمة كانت خطأ . سامحك الله . . .
ـ أفهمت اذن ؟
ـ بعد فوات العمر . أنا لم أقتله . .
ـ يا للسخف . ومن القاتل ؟
ـ هل تضمن ألا يسمع أحد ؟
ـ قلت تكلم !
ـ عشريُّ الستره . . هو قاتله ، جلس على عرشه . حتى قاطع تذكرتي . .
ـ ما شأنه ؟
ـ مسكين مثلي . هو في الواقع جلّاد وضحيه . . نفذ أمراً لم يفهمه في إنسان لم يعرفه .
والأدهى من هذا . . . .
ـ ماذا ؟
ـ أني لم أُقتَلْ وحدي . . أوحى الله أو الشيطان اليَّ . .
ـ ومتى هبط الوحي ؟
ـ بعد تمام اللعبه . .
ـ اللعبة ؟ . أظننت بأني ألعب ؟ . إني . . . .
ـ أصبر يا مولاي . . أعِرْني سمعك ـ بعد سقوطي فوق الخشبه ، بعد التصفيق وثرثرة النقاد مع الجمهور وثرثرة الجمهور مع النقاد ـ خرجتُ الى الشارع . . شبحاً يتسكع بين الاشباح . لا أحد يحس بجرحي ، لا أحد يجفف سيل دموعي ودمائي ـ هل تدري من صادفتُ على طرق الوحشة والقبح ؟
ـ عشريُّ الستره ؟
ـ يقيناً لا . . هذا لا يبصره مسكين مثلي ـ
ـ ومن صادفت ؟
ـ موتى مثلي . ولدوا أمواتاً ، عاشوا أمواتاً ، قُتلوا كل صباح ومساء ، لم يلمح أحد منهم قطرة دم تنزف منه أو تلمع فوق ثيابه . شغلتهم أحزان اليوم وأوجاع الأمس ، جمع الزاد ليوم موعود يزحف فيه الدود . لم يعنوا أنفسهم حتى بقراءة نص التهمه ، لم يشكوا الأمر لقاضٍ أو مسؤول أو سجّان ـ هل تعرف سرّ الأمر ؟
ـ سرّ آخر ؟
ـ السر بسيط . الكل قتيل لا يدري من قاتله ومتى قتله . خدم معصوبو الأعين تخدم خدم الخدام ، وعبيد تسجد لعبيد عبيد . قلت لنفسي : مقتول من آلاف القتلى . من مليون وملايين . . منذ سنين ، ملايين سنين . والسيد . . هل تدري مَنْ ؟
ـ من ؟
ـ عشريُّ الستره . . يتربع فوق العرش وبين يديه زمام القدره . . يتنزل منه الأمر ولا يعرف أحد أمره . . هل تعرف ماذا قلت لنفسي ؟
ـ قلت لنفسي : ماذا أفعل ؟ هل تملك شيئاً حبة رمل في وجه الجبل المظلم ، أو قطرة ماء تائهة في أليم المعتم ؟ أدركت حقيقة نفسي وحقيقة جنسي ، وبكيت بملء العين وقلت لنفسي . .
ـ ماذا تفعل ؟
ـ حقاً ماذا أفعل ؟ لم يبق أمامي إلا أن أَقتُلَ أو أُقتَلْ . .
ـ أعلنت الثورة ؟ !
ـ هل يعلنها من طعن الخنجر صدره ؟ ـ كان الليل ثقيلاً والمحنة أثقل . فتسكعت قليلاً في طرقات الوحشة ثم رجعت . .
ـ لنفسك . .
ـ بل للمسرح . . كان الناس قد انصرفوا والقاعة صمت وخواء . وطلعت على الخشبة وحدي أعرض ملهاتي السوداء . أعرض نفسي في مرآتي ، كالأخرس يخطب في سوق الخرس ويروي قصته الخرساء . رحت أمثل كل الأدوار بلا ترتيب : فأنا الآن مسافر ليل ، قاطرة ، قاطع تذكرة ومفتش ، وأنا في نفس الوقت الناظر والسائق والحارس والحمّال وجمهور المنتظرين وجمهور البسطاء الفقراء . حتى نفذ اليّ الصوت . .
ـ الصوت ؟
ـ صوت يأمرني أن أخرج من ملهاتي وأعود اليك . .
ـ إليّ أنا ؟
ـ أنبأني الصوت بأنك تتألم فأتيت اليك . قل لي ماذا أفعل ؟
ـ نفس سؤالك وسؤالي . هل ينفعني في حالي ؟
ـ بم تأمر ؟ بم يشملني عطفك ؟
ـ هل عندك للجرح دواء ؟ ها أنت تراني يعصرني الداء .
ـ ما أنا إلا خادمك وظلك ، وصدى صوتك . أأسوّي فرشك وأرتّب عشك ؟ أم أعرض فصلاً من ملهاتي كي أمسح دمعك وأخفف وجعك ؟
ـ ما أبغيه لا تقدر أنت عليه . .
ـ هل أستدعي أبطال التاريخ ؟ ها هي ذي الأسماء ، نقشت بحروف بارزة سوداء . هل يرضيك الاسكندر ، قيصر ، هانيبال ،

تيمورلنك والحجاج وجنكيزخان ؟ هل أدعوهم . . .

ـ القتلة . . دعهم يا أحمق ، لا تزعجهم في مقبرة التاريخ . .

ـ ما أنا إلا أحد الفقراء . . داستني قدم العظماء وألقتني حبة رمل في صحراء الدهماء . .

ـ أرأيت بنفسك ؟

ـ مُرْني يا مولاي بشيء . . أرجوك . .

ـ لونك يبدو مصفراً . فاذهب عني مشكوراً . .

ـ عشتُ كما عاش ملايين المجهولين سواي ، كجرادة حقل يا مولاي . ألهث سعياً خلف الخضرة واللقمة والماء ، تسقط أيامي الجرداء بجوف لياليَّ السوداء ـ أما وجهي . .

ـ وجهك ذكرني باللون الأصفر ، واللون الأصفر يغشي عينيَّ الآن ، وكأني ألمح لون الداء ولون الطغيان . كنت حمامة أيك تدخل في معركة مع ثعبان . كنتُ فقيراً لا أملك إلا كلماتي أنثرها في أوزان أو ألحان ، راحت أجنحة الكلمات ترفرف فوق السور وحول الجدران ، تصطدم بأسلاك الزيف وأشواك الخسَّة والبهتان ، حتى ارتدّت للقلب وغارت فيه الأحزان . إذهب عني أرجوك . .

ـ تصرفني ؟ إني جئت أقدم قرباني ، أنسيت بأنك من عدمي سويتَ كياني ؟

ـ لونك أصفر . .

ـ أو لا تكفي تهمتيَ الأولى ؟

ـ تهمتك الكبرى أنك موجود . وعقابك ألا تحيا إلا كحياة الدود .

ـ ما ذنبي وأنا لا أملك حتى الزاد ؟ هل يرضيك عذابي تحت سياط الجلّاد ؟

ـ تذروني الريح على أرصفة الزمن الضائع حفنة عدم ورماد ، كجراد أهلكه الجوع يجرُّ صغار جراد ؟ . .

ـ دعني ، حوِّل وجهك عني . . واسقط في مزبلة التاريخ لتنتظر قضاءه . . أنقذ نفسك أو فتش عمّن ينقذك بعيداً عني . . . فأنا لا أقدر حتى أن أنقذ نفسي أو بدني . . . .

يتلوى الجرح وتسقط فيه السكين . تحاول أن ترفع يدك الى صدرك فتثبتها كف دافئة ناعمة الجلد . يثور غبار حولك ، تتلبد سحب صيفية ، يعوي الإعصار وتختنق الأنفاس ويسقط في عينيك غبار . تسأل نفسك : يا داري ، يا دار الشقوة يا دار ، هل زحف السيل الجرار ؟

يقعي الزائر في الركن الصامت مكسور الخاطر . وكما سافر في الليل مع الوحدة والأحزان يسافر . يهمس في محنته :

ربي . خرج العالم عن محوره واختل الميزان . هل يعدله انسان مثلي وأنا أضعف انسان ؟ ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟

تنتبه إلى صداه الذي يغيب شيئاً فشيئاً وتسأل نفسك : ماذا أفعل ؟ تلتفت إلى الاشباح البيضاء التي تقف بجوارك وتتحرك أيديها ورؤوسها في كل اتجاه وتسأل : ماذا يفعلون ؟ تشتد العاصفة ، يثور غبار ، تربُّد السحب وتتجهم نذر الإعصار . يتردد صوت المسافر الذي انزوى شبحه في ركن الجدار وتكوم على نفسه كحيوان محتضر وهو يردد : ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ تشتد العاصفة وينفذ صوت كالرعد : هجم التتار . . هجم التتار . .

***

ـ ١١ ـ

هجم التتار . . هجم التتار . .

يرتفع صدرك وينخفض ، تتحشرج أنفاسك كالريح المختنقة في أسرار الغابات . يرفرف الطير الأسود ويضطرب جناحاه ويقاوم العاصفة ، يعلو ويهوي مذعور القلب والعينين . لو تنفذ كفاك إلى قفص ضلوعك فتهدهده وتحن عليه حنان الأم على صدر وحيد ؟ لكن الاعصار شديد ، والأفق الغائم غطته الرايات السود ، ودوي الطبل الأجوف يقترب ويبتعد ويذهب ويعود . تفتح عينيك الداميتين ، تحاول عبثاً أن تنهض ، تصرخ ، يضنيك الألم ، تئن ، تردد أطراف الجسد المكدود : جحافل التتار ، واقفة هناك كالجدار ، تسد عين الشمس بالغبار ، تجلل السماء بالسواد والحداد والدمار ، تزحف كالجراد كالاعصار ، تفتك باخضرار العين والضمير والأشجار ، اليَّ يا أحباب . . قد أهلكني الدوار ، اليّ يا أحباب فالتتار ، عيونهم تئز كالشرار . . يرتفع أنينك فيثبت الطبيبان نظراتها عليك ويثبتان فتحة الخرطوم في فمك ، يرتفع أنينك فيصحو المسافر من غفوته في الركن الداكن ويقترب منك :

ـ مولاي . .

تشير بسبابتك الى النافذة وتلهث : « الأفق مختنق الغبار » . .

يتجه إلى النافذة وينظر ، لا شيء سوى جبل الليل الأسود كالويل .

ـ « والأرض حارقة كأن النار في قرص تدار » . .

ينظر وينظر . الأرض قطة سوداء ملتّفة على نفسها في عباءة النوم .

ـ « وكتائبي رجعت ممزقة وقد حَميَ النهار . .

النهار لا يزال بعيداً ، والكون يحتمي من الظلام بالظلام . . .

ـ « الخيل تنظر في انكسار » . .

حقاً هي خيل الليل ـ تعدو وتسابق خيل الليل . .

ـ « والبوق ينسل في انبهار » .

تنبهر الأنفاس ولا أسمع الا صوت الليل وصوت الليل عميق ـ اكشف عن وجهك يا ملك ملوك الصبح وأذِّن في البوق . .

ـ « والعين تدمع في انكسار » . .

يتراجع عن النافذة ويختلس الخطى إلى فراشك . تضطرب

أنفاسه وهو يرى اضطراب أنفاسك .

تلمح عيناه الدمعة تترقرق فوق الجفن وتنحدر إلى الخدين . يمدُّ الكف المرتعشة كي يمسحها ويحس بأخرى تلمس شفتيه . يقرب أذناً من فمك ويسمعك تسرُّ اليه :

« زحف الدمار والانكسار ـ زحف التتار » . .

يقف مسافر ليل كالصنم الأبكم ، الوجه يطل عليك كوجه غراب أسحم ، وتحول عينك عنه لتنظر وجه القدر المعتم ، يخفق كالطير الأسود في داخلك ويؤلم : في مطلع النهار خيَّمت سحائب التتار ، والتهم الجراد خضرة الشباب ، غالها بالخوف والأسى والاصفرار . هتفت يا أماه لن نبيد ، يا أماه جففي الدموع قولي للصغار ، غداً نشيد ما قد هدم التتار ، ومرت الأيام مرت الأيام واستقروا في الديار ، وداست الأقدام في فؤاد الفارس الهمام في فؤاد الفارس المغوار ، وساخت الأحلام في قرار هوة بلا قرار ، وضلت الخطى طريقها للدمعة البريئة ، وأخطأت طريقها للضحكة البريئه ، وانكفأ النهار في ضحاه كالعجوز ينكفيء في ساعة احتضار . سمعت من يقول هم هدية السماء للفانين من أمثالنا ، لحفنة الأموات حفنة التراب الآدمي والغبار ، وكنت في زمانيَ القديم أحضر الأسمار ، أنشد الأشعار ، « وعندما أُمِرْتُ أن أثير زهوهم وأذكر انتصارهم ، غنيتُ ـ كان في قرار اللحن ، ما لم أجد كتمانه من وحشة وحزن » ـ وعندها بكيت ملء العين : « جوهرة سقطت في الزمن الوغد ، تحت حذاء الجندي الأبيض والجندي الأسود ، برجاً سقط جريحاً في زمن التبريح ، قصراً أسطورياً سقط عليه الأجلاف ففرت منه الأسطورة ، مُهْراً وثاباً في درب المعراج الى الله ، جاء الدجالون فنزعوا منه الريش الفضي ، واقتلعوا جوهر عينيه اللؤلؤتين » ، وانهمرت أسئلة الشعراء الموتى والأحياء عليَّ : سألوا عن معنى الحرية والحق ، عن معنى العزة والصدق . نادى الجرح على السكين فصحت : آهٍ يا وطني ! ولزمت الصمت . هل تفهم عني يا من كنت تسافر في جنح الليل وما زلت ، ـ يا منْ مِن أجلك جعت ظمئت حييت ومتّ ؟ بكيت وانتظرت أن تزول محنة التتار ، أن يرفع الغبار والأسى والاصفرار أن يعود الاخضرار ، لأعين الصغار ، للدماء في العروق ، للربيع والدموع ، للكلام والسلام ، للأيام والأحلام والسنابل التي تموت في الهجير للصحاري والقفار ، وعشت في انتظار سيد يجيء بعد طول الانتظار ، يحمل قلب الأم في يمناه ، في يسراه سيفه البصير كالنهار ، وطال الانتظار . . ثم طال الانتظار . . .

تنظر عيناك المتعبتان الدامعتان إلى وجه أخرس أبكم ، يعلو جداً كالطين المعتم أخرس أبكم . تتحشرج لجة أنفاسك ، يرتعد الطير الاسود ينقر صدرك ، يشرع منقار الشؤم ويتوعد ، ترفع عينيك ووجهك نحو الأفق المربد : الريح تدمدم ، والليل يهمهم ، والسحب على صدر الأفق تغيم وتظلم . ينتفض الجسد على صوت يخطف كالبرق المرعد : الليل تمدد ، والصبر تبدد . يا أهل مدينتنا ! انفجروا أو موتوا ! انفجروا أو موتوا . تشرق بسمة طفل في شفتيك وفوق جبينك تتمدد . تسأل نفسك : أهو السيد ؟! . . . .

⁂

ـ ١٢ ـ

يا أهل مدينتنا . . يا أهل مدينتنا . .

ينقشع الغبار وتتجلى العاصفة . تطفو فوق الموج وتشرب أنفاسك وتسترد شعاع الوعي . تنسحب ذيول الضجيج وقعقعة العربات ودقات الطبل وأطراف الرايات السود . وتمد العينين والأذنين في السكون الرحب فتسمع صيحة ديك مشروخة ، وتفتش عن نور الفجر الذي لمسته عصاه السحرية ولم تلمسك . النور هنا مصنوع ، نور مصابيح تئز كجمر في عيني شيطان ، تنشر سحب ضباب مغبرّ ، تلتف على ظهور الطبيبين والممرضة الصغيرة المشغولة أبداً كالنحلة ، وعلى جسد المسافر المكوم بجوار السرير كصنم يحلم أن يتحرك يوماً أو يتكلم . . نوراً يا ربِّ ـ نوراً يفرش دربي ، وليصبح طير الموت الأسود ديكاً يعلن مطلع فجر في قلبي . يتردد الصوت النافذ كالسهم ويصطدم بجدران الغرفة ويشع رنيناً يتداح كدوامة : يا أهل مدينتنا . . يا أهل مدينتنا . . تنظر ، تتذكر ، تهمس : هل يأتي السيد ؟ !

تتطلع للنافذة فترى وجهه النجمي يزيح ستار الظلمة ويقترب منك . وجه يسبقه بريق عينين ملتهبتين بالغضب والتحدي ، ويد ترتفع وتنخفض تفتش فيها عن سيف مبصر . أين هو السيف المبصر كي يذبح طير الموت الأسود ؟ ما زال يرفرف في صدري ، يغرز منقار الشؤم بقلبي . أقبل يا سيد أقبل ـ لكن لا تنسَ السيف المبصر . .

ما زال بعيداً عنك . تستعطفه عيناك ولكن لا يتحرك . تغلبه الكلمات ، تشل يديه وقدميه عن الفعل . طالت غيبتك ، تقدم . ساعدني أرجوك . .

يفتح فمه فتتفجر الكلمات الغاضبة : يا أهل مدينتنا . .

ترتسم ظلال ابتسامة على فمك ووجهك : أنا وحدي يا سيد ملقى ومحطم . .

ينهمر الصوت كشلال ينبثق من نبع قديم : رعب أكبر من هذا سوف يجيء . .

تتكاثف المرارة على فمك : أكبر ما أنا فيه ؟

ينطلق الشلال كما ينطلق المارد من جوف القمقم : « لن ينجيكم أن تعتصموا منه بأعالي جبل الصمت ، أو ببطون الغابات ـ لن ينجيكم أن تختبئوا في حجراتكم أو تحت وسائدكم » . . لن ينجيكم . . لن ينجيكم . .

تحاول أن تقاطعه وكأنك تضع قشة أمام التيار : هل تنجيني كلماتك ؟ . .

تشير ذراعه التي ترتفع وتهوي باشارة حاسمة : انفجروا أو موتوا . . هذا قولي . . . .

تحول عينيك وأنت تقول : قولك . . قولك . . كلمات في كلمات في كلمات . .

يجيب بسرعة كأنه بدأ يلتفت اليك : لا أملك الا أن أتكلم . .

تردد وأنت تتطلع للنافذة بحثاً عن شعاع واحد : « كلماتك لا تسقي عطشاناً قطرة ماء ، لا تطعم طفلاً كسرة خبز ، لا تكسو عري عجوز تلتف على قامتها المكيسورة ريح الليل » ،

لا تشفيني من جرحي القاتم كالويل . هل تنجيني كلمات غاضبة كالسيل ؟ . .

يقترب منك ويمدُّ سبابته كأنه يشرع سيفاً : لا أملك الا كلماتي الغاضبة . .

توشك أن تضحك فلا يسعفك الصوت : يا ليتك جئت لتضحكني أو تضحك . .

يتجهم وجهه ويتراجع قليلاً كأنه يفسح مكاناً للأحجار المنهمرة : أضحك ؟ . . « إنا نحتاج الى أن نغضب . ضحكت هذي المدن المتبلدة الحس ، خمسة آلاف سنة ، ضحكت، حتى استلقت ميتة فاتحة فاها كالجرح الصديان ، ظنت وخز الأيام النحس ، دغدغة حنان » . .

تنسكب جداول الذكرى في وجدانك وتطفو على ملامح وجهك : أتذكرك الآن . أنت نبي مهزوم يحمل قلماً . . .

يسرع قائلاً : ينتظر نبياً يحمل سيفاً . .

تغالب الألم الذي ينفض وخزه على صدرك : أنا أيضاً أنتظره . .

يقترب بوجهه كأنه يمد اليك البشارة : يأتي بعدي . . يأتي بعدي . .

تحاول أن تنهض وتصرخ في فمه وأذنيه : يأتي بعدك . . يأتي بعدك . . فمتى يأتي ؟

ينتفض جناح الطير الأسود . تضغط بأصابعك على الألم ، تحس الجرح وتهمس بالصوت المجروح : لم تبطىء عني يا سيد ؟ الطير الأسود يخفق في جنبي ، ينقر في حبة قلبي ، أولا يبصره سيفك ؟

يتردد صوت لا تدري هل يأتي منه أو منك : سيفي لم يبرح جفن الغمد . .

تسأل وأنت تعض على سرّك : ومتى تكشف عن وجهك ؟

ـ أنا لا أكشف عن وجهي الا في أوج المجد ، أو في بطن اللحد . .

تعض تعض على السر المختنق بصدرك .

ـ يا سيد ، أبتهل اليك . أخرج من لحدك ـ اهبط من قمة مجدك . .

ـ أنا لا أهبط الا في منتصف الليل .

ـ ليلي انتصف وما دقت أجراس الفجر . .

ـ إلا في منتصف الوحشة . .

ـ الوحشة فاضت كالطوفان وأغرقت الصدر . .

ـ إلا في منتصف اليأس . .

ـ يأسي يقطعني نصفين ويقتلع النفس . .

ـ إلا في منتصف الموت . .

ـ انتصف الموت وعشش فيَّ الطير الأسود . . أدركني أو لن تدركي بعد . .

يزداد رفيف الطير الأسود في صدرك . يتخبط كالمذعور ويضرب بجناحيه . يدخل في أعضائك مختطف الخطوة مسروقاً ، تفتح صدرك وتناديه : « أدخل عذباً ورقيقاً ، فأنا أتأهب لك ، نَقِّرْ حتى تجد طريقاً . آه ما أوجع خفق جناحيك ، أبعد عني هذا المنقار الشائك » . . تتلفت حولك ، تستنجد بالأشباح الواقفة حيالك : ما بالكم تقفون كأشباح ؟ . . أنت بأشعارك . . أنت بطبك ودوائك . . أنت النائم في قاطرة الليل بصمتك وغبائك فليفعل أحد منكم شيئاً . . . يا سيدي القادم من بعدي . . أدركني فلقد طال عذابي إني أنتظرك . . أنتظرك . . . . .

يقف أمامك مهزوماً وبلا قلم أو صوت . تختلج الكلمات على شفتيه وتسقط في جوف الصمت .

يتحرك نحوك ، يغمض جفنيه كالعراف الأعمى ، ينطق بالنبوءة رغماً عنه :

ـ لا تنتظر الآتي . . هو ينتظرك . .

ـ ومتى ألقاه ؟

ـ حين تدق الساعة ويحين الوقت . .

ـ ناشدتك أن تدعوه . . تعبت . . تعبت . .

ـ وأنا أيضاً أنتظره . .

ـ كلمه . . نادِ عليه . . ها أنذا في منتصف الوحشة ، في منتصف اليأس ، في منتصف . . . .

ـ وا أسفاه . . أحببتَ الموت . . أحببتَ الموت . .

ـ لأني أحببت العيش وعشت . . إنك لا تعرفني . .

ـ بل أعرفك وأعرف سر كلامك والصمت . كنت رفيقك في الليل الموحش ، صاحبك وتابع ظلك ، حامل قلمك ، صندوق متاعبك وهمك ، كم نادمتك ، عاتبتك ، سافرت على مركبك ، سبحت على الأمواج ، غرقت . أعرفك وأرسم صورتك كما أنت : « جبهتك المشرقة الصلبة ، عيناك المتعبتان الطيبتان ، كفاك المتكلمتان وعيناك الصامتتان تنيران وتنطفئان ، مشيتك المرهقة المتماسكة كمشية جندي بين قتالين مريرين » . .

ـ ألقى الجندي المتعب أسلحته . . علّقه الزمن الوغد من الساقين

وشيَّب جرحه . قطّع أوصال الحاضر والماضي . .

ـ أو لا تؤمن بالمستقبل ؟

ـ « بل إني أخشاه لأني أومن به ـ أوشك أحياناً أن ألحظه لحظ العين . ولهذا فأنا أبصره ملتفاً في غيم أسود » .

ـ والحرية ؟

ـ هل عشتُ لشيء غير الحرية ؟ هل جُدْتُ بدمعي إلا كي أسقي شجرتها الذهبية ؟

هل فجّر فيك الغضب فبحْتَ بما أمليتُ عليك سوى ايماني بالمستقبل والحرية ؟ لكن المستقبل حلم قد لا أشهده ، والحرية شطّ قد لا أرسو فيه .

ـ في منتصف الوحشة يولد طفل الحلم . في منتصف الظلم يضيء سراج العدلَ ويحكم . في منتصف اليأس يجيء القادم بعدي . . .

ـ أم في منتصف الموت ؟

تشعر أن الطير الأسود قد جن جنونه . اختنق وراح يشق طريقاً يخرجه من قفص الصدر . فتح منقاره كالنورس المذعور وتهيأ للاندفاع الى البحر الواسع والانطلاق على متن الريح . تحس أنه يتمدد كالكابوس ويفرش جناحيه عليك . ينفرد الجناحان ويغطي الظل القاتم على شرارة ضئيلة لا تزال تتقد في الداخل كأنها عين محمرة تومض وتنطفيء . يمتد الصوت كحبل يرفعك من الكابوس :

ـ القادم سوف يجيء . . القادم سوف يجيء . .

تفتح عينيك المجهدتين وتنظر للوجه الملتمع العينين :

ـ هل أصنع شيئاً إلا أن أنتظر القادم ؟

ينقر الطير الأسود ويحفر ويحفر كي يقتلع الحبة ، يرفرف بجناحيه لكي يطفيء الشرارة ، ينفتح جرح في عمق الأرض المشقوقة وتنزُّ منه قطرات تلمع وتخبو كبريق مُذنّب في آخر الليل . تتحرك شفتاك من الألم اللاسع : يا سيدنا القادم بعدي . .

يقترب الوجه الصارم منك وينعطف عليك : اصبر . . حتماً سيجيء . .

تريد أن تصرخ فلا أستطيع : الصبر تبدد . . فمتى يأتي ؟

يتصلب الوجه أمامك . تقرأ في صمت ملامحه : تعرف موعده . .

تعض على سرك وتحاول أن تعثر على اليد التي تبحث عنها : ناد عليه . . أرجوك . . أو فادعُ الموت . .

يهبط صوت ينحدر من أعالي الجبل كرفيف النسر : لا يدعو الموتَ اليه سوى الموتى . أما أنت فحيّ . .

ترفع اليه عينين شاهدا الجرح ولمساه وصبغهما بحريق الدم : أنا لا أدعوه ، جرحي يبتهل اليه . يخفق الصوت ويمدُّ جناحيه على صدرك ووجهك : جرحك مفتوح ككتاب قُدْسيٍّ . والسيف المبصر سيعود وينطق كالوحي . أنا مثلك أنتظر القادم بالزاد وبالري . .

تردد بصرك بين المسافر المتكوم في غيبوبته بجانب الفراش ، وصاحب الوجه اللامع المتصلب كالكاهن الفرعوني على رأس مليكه المحتضر ، والطبيبين العاكفين على الأجهزة والأنابيب والأدوات والدوارق ، والممرضة الصغيرة التي تجري كالنحلة في مهب الريح . تضغط أجنحة الطير الأسود ويتأهب للاندفاع فتصرخ من تحت الجبل الجاثم عليك : يا حلاّج . . ثبّت قلبي يا محبوبي . . . .

***

ـ ١٣ ـ

ثبّت قلبي يا محبوبي . . .

يدخل كالطفل الضاحك فرحاً بهداياه ولعبه ، طفل شيَّبت الأيام الجهمة شَعره ، ترك الحارس والسجّان وقاضي الشرع على الجسد الناحل أثره ، فوق الذقن المرسل يتناثر دم ، فوق الصدغ وتحت العينين بقايا دم ، وعلى السترة والشال الأبيض والسروال المترب بقع الدم . يتهلل نور العينين الساجيتين ويبرق بالبسمة والكلمة فم ، لا تخفي الحفر عليه وعلى الوجه الضامر ألم السوط المؤلم . يقترب قليلاً ، تتذكر طلعته النورانية ، تنضو عنه سحابته ، يتضح الشبح المعتم . ها هو ذا يقترب ، يحاول أن يجري نحوك ، يتعثر في الأغلال الصدئة في رجليه ويديه ، يقوم ، يشد الخطو ، تجلجل ضحكته الحلو يوم تبدّت للعين الشجرةُ واندفع إلى عُرْس الصَلْب وتمتم بالآيات وشكر الله وسلّم . تتهلل طلعتك وتخفق آخر أنفاس سراج العين وتبتسم وتحتضن الحلم . توشك أن تطلق ضحكتك العذبة وتمدّ اليه تفاحتها الناضجة بدفء العمر الغارب في ليل مبهم ، لكن الشوكة تنغرز وينطبق الفم . يقفز كالعصفور الأحدب يتملى وجهك يتكلم :

ـ « تبدو كالغارق في النوم . تنسكب العينان على صدرك ، وكأن ثقلت دنياك على جفنيك ، أو غلبتك الأيام على أمرك .

تفتح شفتيك المالحتين بطعم العلقم وتخاطبه كخطاب النائم في حلم :

ـ « يا شيخي أنا انسان يضنيني الفكر ويعروني الخوف . ثبّت قلبي يا محبوبي . أنا انسان يظمأ للعدل ويقعدني ضيق الخطو ، فأعْرِني خطوك يا محبوبي ، وشفيعي قلبي المثقل ودموعي في الليل » . . .

يثبت عينيه في عينيك المغمضتين على الحلم النائم في فرش اليتم :

ـ بلساني تنطق يا ولدي ، وبشعري الباكي تتكلم .

ـ إني أتعذّب يا شيخي الطيّب . .

ـ فليغفر لي الله عذابك يا ولدي .

ـ أنا بين يديك صريع يا حلاّج . قتلتني كفّ العصر الدموية ، داستني قدم العصر الهمجية ، لدغتني بالسمّ أفاعي النيّات المطوية ، ألعاب الزامر والحاوي بالكلمات القدسية .

ـ قدّس ربّي كلماتك ورعاها كالورد نديّة . كنت بسالف أيامي قد قتلتني الكلمات ، ورأيت الدنيا مخلوقاً بشعاً شوّهه الظلم وعذّبه الفقر الهائم في الطرقات ، وتخليت عن السرّ فبحت وصحت . .

ـ أنا أيضاً قتلتني كلمات تنزف كجراح . عجز لساني عن إلجام السر الجامح فانطلق وباح .

ـ قل يا ولدي ، وانفض سرّك وتكلّم . ما أحلى أن نتكاشف بالأسرار ونحلم .

ـ كنت أحدّثهم بحديث القلب . لم يستطع الكتمان فباح . وسقطتُ بقاع الحب .

ـ مثلك لا يسقط أبداً يا ولدي . قد تسقط شجرة جسدك أو يهوي غصنك . لكن تبقى ثمرة فكرك ، يبقى لحنك . ألم تقل على لساني : « كأن من يقتلني محقق مشيئتي ، ومُنْفِذٌ إرادة الرّحمن ، لأنه يصوغ من تراب رجل فان ، أسطورة وحكمة وفكرة ؟ » .

ـ أو حتمٌ كان علينا أن نُقْتلْ ؟ أن ينهال الكَذَبة بفؤوس الحقد على شجرتنا فتميل وتذبل ؟

ـ يُقْتَلُ كل الشعراء بكل بلاد الله . يقتلهم حقد الحطّابين المحرومين من الموهبة السفهاء .

ـ خوّضت طويلاً في طرقات الله . والآن يعض الطير الأسود حبة قلبي ، أو لست تراه ؟ ها هو ذا يضرب بجناحيه ، ينشر ظل الموت ، يسدّد سيف الرعب فآه . .

ـ لا يخشى الموتَ سوى الموتى . قم فالناس « عطاشى لترويهم من ماء الكلمات . جوعى لتطاعمهم من أثمار الحكمة ، ظمأى لتنادمهم بكؤوس الشوق إلى العُرْس الرباني » ، قم واسكب كأس غناك ينديّ القلب بحلم نوراني . قم يا ولدي . . .

ـ آه يا شيخي الطيب . كيف أقوم وأمشي أو كيف أغني ؟ أنا لا أملك حتى أن أفتح عيني ؟

ـ حاول يا ولدي . . حاول .

ـ تتخلى عني القوة ، يسري الشلل بأطرافي ، يهوي شِعْري كالملح البارد في أعضائي ، يخذلني نهر حياتي ودمائي ، يجفو وقدة صحرائي .

ـ هيا يا ولدي نسعى في طرقات الله ، فالفقر يعربد في الطرقات ، يذل رقاباً وجباه ، « والمسجونون المصفودون يسوقهم شرطي مذهوب اللب ، قد أشرع في يده سوطاً لا يعرف من في يده قد وضعه ، ورجال ونساء قد فقدوا الحرية ، تخذتهم أرباب من دون الله عبيداً سخرياً . قم فانشر استولي في ملكوت الله » .

ـ الشر قديم في الكون . أو لم تعرف هذا يا حلاّج ؟ أو لم يشهد دمك الطاهر طغيان الشر على الخير ، ألم تلحظه لحظ العين ؟ الشر قديم متجدد . في كل زمان ومكان يكتسب جنوداً ويعربد . لكن الشِعْر فَراش محزون مجهد . يجذبه النور فيحْرق بالنار ويُجلد ، يسقط كعجوز محتضر مقعد ، يا كم حاول شِعْري أن يصنع من نار العالم نوراً يأتلق ويُسعد ، حتى احترق وصار بلون الفحم الأسود ، صارت كلماتي شوكاً في الصدر ودمعاً في العين تجمّد ـ هل خبتُ وخابت كلماتي ؟

ـ كلماتك ما خابت أبداً فتشجع ـ « وستأتي آذان تتأمل اذ تسمع ، تتحدّر منها كلماتك في القلب ، وقلوب تصنع من ألفاظك قدرة ، وتشدُّ بها عصب الأذرع ، ومواكب تمشي نحو النور ولا ترجع ، الا أن تسقي بالألعاب الشمس ، روح الانسان المقهور الموجع » . . كلماتك . .

ـ كلماتي . . كلماتي . . هل تقدر أن تنقذني من هذا المستنقع ؟ هل تقوى أن تسحبني من شَعْري أو من شِعْري الغارق في الدمع ؟ آهٍ لو كانت كفاً تحصد أو تزرع ، تبني أو تهدم أو تردع . .

ـ كلماتك تنحدر إلى الناس ، تحدثهم عن رغبة ربّي : « الله قويّ يا أبناء الله ، كونوا مثله ، الله فعول يا أبناء الله ، كونوا مثله » . . .

ـ يا شيخي الطيب . « في عصر ملتاث ، قاسٍ وضنين ، لن يصنع ربّي خارقة أو معجزة ، كي ينقذ جيلاً من هَلْكى ، قد ماتوا قبل الموت » . .

ـ الموت علينا مقدور ، لكنْ كلماتك يا ولدي حيّة . صنعت مني أسطورة رجل فان ، رجل ظمآن ، يروي عطش الناس لنور العدل الباهر والايمان ، كم أحييتَ من الأرواح بسرّ الكلمات ، وبعثتَ الحلم مسيحاً يحيي الأموات ، وغداً يتفتّق منها فجر الحرية . . أنظر فالنور . .

ـ النور شحيح يا شيخي ، والفجر على الأفق مقيّد . .

ـ النور سيأتي يا ولدي ، وغداً . .

ـ كم عشت على أمل الغد . .

ـ الفجر قريب يا ولدي ، لن تخطىء طلعتُه الموعد . .

ـ يا شيخي مهلاً لا تسرف ، فالليل على الكون تمدّد . . .

ـ الفجر سيولد في الغد . وسيزهو بمدائن ربّي ، ويتم الموعد والوعد . .

بسمته تشرق كالرؤ يا وتطوف على الوجه المتعب ، كالبرق النافذ مجروحاً ، من ثوب الظلمة والسحب .

لا تخطىء عينك دمعته ، تتحدر كالطفل الميت ، تتلوى بالألم وتسكت . ترمقه ، تشرب دمعته وتحوّل عينك للسيد :

ـ هل يأتي حقاً يا سيّد ؟

تنفرج أسارير الوجه الفرعوني المتصلّب ، ويطل الصوت المرهَق كابتسامة أبي الهول : لا بدّ سيأتي . . . لا بدّ .

تطوف عيناك بين الوجهين ، لا تدري أيّهما تصدق . تسحب كلمتك كمجداف تاه على لجج الوحشة وتمزّق . والطير الأسود ؟ ها هو يتمدّد في جنبي ، والظلّ على قلبي يرقد . ساعدني يا شيخي الطيّب ، هات ذراعك مدّ يديك وحاول أن تطرده يا سيّد .

يأتي الصوت ولا تدري من أين يجيء : الطير الأسود سيحلّق في

الجو ويبعد ، وقريباً يسبق نذر العاصفة ويرعد .

تعضّ على شفتيك ، على طرف مخدّتك ، على السرّ الموجع كالسيف المسنون الحدّ : ـ

ـ يا طيري الأسود . يا طير الرعد . يا طير الغد . هل جاء الموعد ؟ ما زلت ترفرف بجناحيك وتنقر حبة كبدي . أتعدّ الزاد لسفرٍ يوغل في البعد ؟ خذ ما شئت وغادر عشّك في جسدي . خلّص نفسك من قيدك لتخلصني من قيدي . ماذا أفعل ؟ قل لي يا شيخي الطيّب ، مرني يا سيّد . ماذا أفعل ؟ يزداد الحمل عليَّ ولا أتحمل . يا شيخي قل . .

يدنو منك . يتعثّر في أغلال الساقين وقيد القلب المثقل . يحنو فوقك ويفيض على عينيك من النور الأكمل :

ـ تسألني ماذا نفعل ؟ نلقي بذرتنا في أرض البشر ونرحل . هيّا يا ولدي . .

تعضّ تعضّ وتفتح شفتيك فتخرج نسمة : أدركني يا مولاي وخذ بيدي . .

يريق النور بعينيك وتشربه إكسيره . تتكسر تمتمة الشفتين على شفتك ويشع رنين البلور على البلورة . ترقص آيات الله وتجري وتحوّم حولك كفراشات مذعورة :

ـ هيا يا ولدي . . هات يديك . . اتبعني . . يا أحباب الله الفقراء . . ليسكب كل منكم دمعةَ حب ووفاء ، ويرقرقها في كأس القلب المتعب اكسير حياة ودواء . . هيا . . هيا . . . ثبّت قلبك يا محبوبي . . واتبعني فوق الدرب تباركك دروبي . يا شهداء العالم هذا شاهد مأساتي وشهيدي . هل نحرم هذا العالم من روح شهيد ؟ . . هيا . . خذ بيديَّ وغنّ نشيدي . . . هيّا . . هيّا . .

***

ـ ١٤ ـ

تطفو فوق الموج . تحس برودة ماء البحر على جلدك في أطرافك . تتساقط قطرات من كهف الإبطين وغابات الصدر . تتذكر أنك كنت بقاع البحر تخوّض في حقل المرجان وتلعب مع أسماك الذاكرة وتجري خلف عرائسها الذهبية . تذكر أبياتاً من شعرك كعيون واسعة ظلت ترمقك وفي حدقتها الدمع وتنسدل عليها خصل الشعر الفضية وجدائله والشقراء العسلية . تمسك شبكتك بعين منها تتألق بالنور فتهتف وتقول : ربّي . . . ما هذا النور . . تبدو كالطلّسْم المسحور ، يلقيه الموج الليلي الى الصياد المقهور ، إن وافاه الرزق . . . تأخذ نفساً عميقاً وتشعر أنك تصعد تصعد على سلم الضفائر الطوال إلى شرفة زرقاء في أفق أزرق تطل على الموج الأزرق ، لكن الأسماك الماكرة توارت في بئر الليل ، وعرائسه الذهبية لجأت للكهف السري ، ودموع العين السحرية ذابت في ملح القاع . تأخذ نفساً آخر عميقاً وتشرب الزرقة فينسكب الصفاء في صدرك وجوفك وترف فراشاته الزرقاء حول رأسك وشعرك . تنتفض فجأة وتهتز ، تنتبه لألم الخرطوم المغروز في فمك وتنظر حولك : ما زال الليل هو الليل ، والعالم جهم لازال . الطبيبان في مكانهما محنيان عليك ، تتفرس في وجهيهما فلا ترى غير بياض ، تنظر للسقف بياض ، للجدران بياض ، والأشباح العابرة بياض يسبح في بحر بياض . ربّي ما هذا النور ؟ هل أشرق وجه الغد ؟ هل لاحت أبراج المدن النورانية ؟ أين النجمان على كفهما ميزان العدل وطير الحرية ؟ تفكر أن تدعو أصحاب السفر وتسأل أين الحلاّج ، وأين السيد ومسافر ليل وأميرة أحلامي المرَّة أين ؟ هل حملتها المركبة الى قصر الورد وهل تتطلع من شرفته للاتباع وللحاشية الملكية ؟

ربّي ما هذا النور ؟ تتعلق بجناح الزرقة ، تسبح في بحر الصفو الأزرق ، تسأل هل هذا طير الحرية ؟ آهٍ لو يحملني طير الحرية ، لو يبعدني عن أرض البشر الطينية ، أو يرميني في بحر الأبدية . روحي تطفو فوق البرزخ بين الأزل وبين الأبد ، أحزان القلب مصابيح تتألق فوق الدرب وتأخذ بيدي . أخرج من شرنقة العمر المقهور ، تطير فراشة روحي نحو النبع المستور ، لتذوب بسر الأسرار ونور النور . وحدي الليلة وحدي أحتفل بليلة ميلادي ، لا الحلاّج يعين ولا السيد في الأفق ينادي ، هل حان الآن أوان رقادي ؟ كأسي ممتلىء لازال وفيه بقية إنشاد ، وفمي صادي ، لا زالت تشتعل النار ولكن تحت رمادي[١٠] ، أتمنى . . ماذا أتمنى ؟ . . قبل رجوعي للمهد وقبل سقوطي في اللحد ؟ أتمنى . . ماذا أتمنى ؟ . . آهٍ ضاعت أمنيتي وتبخّر وعدي .

أبحر في ذاكرة الأشياء وأتّحد بقلب الأشياء . لكنْ ذاكرتي جرداء . وإنائي امتلأ وفاض وأفرغ مما فيه فصرت فراغاً وفضاء . راهنت على الفرس الجامح شأني شأن صحاب العمر ، وبكينا وتعذبنا من أجل عيونك يا مصر . من أجل الضحكة نرقبها فوق الوجه المغبّر ، يا ما ذرّفنا الدمع وغنا فوق سرير السهد نعاين طلعة فجر حر . حتى هجم تتار العصر ونزعوا عين الخضرة والبسمة والسر . آهٍ يا فرسان العصر ! أعترف بأني يا فرسان العصر ، يا فرسان الموت المصفر ، أكرهكم من قلبٍ عشّش فيه غراب الحزن المرّ . كُسِرت أجنحتي ـ هل تقدر أجنحة فَراش الشِعْر ، أن توقف زحف جراد القهر ؟

يا ما فكرت وكم سطرت . هل تبقى الكلمة بعدي أم يبقى الصمت ؟ يا للكابوس ! خدر ملعون يهبط من رأسي حتى قدميّ . إني أنهار ، أتخلخل مقروراً كالجبل الثلجي وأتفتت كالأحجار ، عيني يجلدها النور ، القِدْر المغليُّ برأسي يلتفّ يدور ، ذاكرتي تتخلى عني ، شِعْري يتخلّى عني ، ينحسر كظل عجوز هرم مقهور . خذ بيدي يا أنت . . وأنت . . وأنت . . ما هذا الليل الأسود فوقي تحتي حولي ، في الجو حريق مسود والظلمة تغلي ، أيـن صفاء الأفق ، صفاء البحر ، صفاء الموج ، وكيف تحوِّم أجنحة سود حولي ؟ أين سفيني ،

ساريتي ، أين شراعي مجدافي هل تغرق مثلي ؟ هل خرج الطير الأسود من جنبي ، صعّد في الجو ، وهجم عليَّ ، أيبغي قتلي ؟ أبعده يا حلّاج ، ـ اطرده يا سيدي القادم بعدي ، واحم الشاعر من عضته يا شِعْري . آهٍ يخذلني الكل وأرتعش وحيداً في ريح الصمت وبرد الليل . يخذلني الكل ولا يبقى الا الصمت . الصمت . الصمت . أين رفيقة دربي ، أين عيونك يا ميّ ؟ يا معتزة إن وحوش الليل تغير عليّ . إليَّ إليَّ . أين صحاب العمر الضائع كزجاج مكسور . « أنا وقت مفقود بين الوقتين . عمر مفقود بين الماضي والمستقبل » . أنتظر القادم ، أنتظر وأنتظر ، فهل يأتي الآن ويرحمني أم يأتي بعدي ؟ أنتظر وأنتظر ولا شيء يعين ولا أحد يعين ولا يجدي . أفتح عين الشِعْر المحمرة في سردابي ـ تفتح وردته المحترقة عيناً تنزف بعذابي ـ « قد كنتَ عطراً نائماً في وردتك ـ لم انسكبت ؟ ودرة مكنونةً في بحرها ـ لم انكشفت » ؟ تهوي الوردة في قاع البحر ، يلتهم الدرّة فك التنين . التنين التنين التنين . يا أصحاب العمر إليَّ إليَّ .

يا أحمد يا فاروق وعبد الواحد ، يا عز الدين وعبد الرحمن[11] . أغرق في بحر الحكمة ، أطفو أغرق أبلع أمواج الملح وملح الأمواج وأنكفىء وأتقيأ ، أرتعش وأختنق وأحترق وأغرق أين الحكماء وأين حكيم[12] ؟ أبحث عنك يا وردة الصقيع . « أبحث عنك في البحار في القفار في حدائق الأطفال في المقابر » .

يا وردة الصقيع . يا وردة الصقيع . أبحث عنك . « يا مدينة الرؤى المنيرة . مدينتي التي تمج ضوءاً ، مدينتي التي تشرب ضوءاً » ـ جنيّة المحال يا جنيّة المحال والجدائل الطوال . جدائل الضفائر الطوال والخميلة التي وفي بلادي الناس في بلادي جارحون كالصقور كالصقور جارحون طيبون طيبون مؤمنون بالقدر . وحين يلتقون بالسلام يلغطون جارحون طيبون كالصقور ، والطارق الملثم الشرير ، والأجدل المنهوم طارق المجهول للمصير من تحت اللثام وجه بوم ، أواه يا مدينتي ، يا ميٌّ لا تخافي ، والنجوم يا واحدتي النجوم يا حبيبتي وإلفه الحبيب لا تخافي حط فوقه الغيلان أعداء الحياة لا تخافي ، وضع النطع على السكة والغيلان والسكة والرأس الوديع ، قريتي يا قريتي واحسرتي لم تأتدم هجم التتار واحسرتي الا الدموع والخيل تصهل قريتي أما يا أماه يا أماه قولي للصغار والتتار والدمار لن نبيد للصغار يا حبيبتي زهران والحياة في مشارف الخمسين جارحون والصقور والصخور والحلّاج . يا وردة الصقيع يا أميرتي وسيدي يا سيدي قد انسكبت كنت عطراً درة وهل يساوي ليتها يا ليتها أغلى من العيون والعيون ليتها يا عنترة يا عنترة وفي انكسار والطبول والعيون والدمار يا أماه والصغار ليتها حبيبتي يا ميّ يا حبيبتي في هدأة السكوت كي أموت للغريب أن يؤوب أن يغيب للشعاع واغتمضتُ إنني أسقيتني أعضّ بالأسرار أختنق أماه يا حبيبتي الصغار نجمتي يا نجمي الوحيد أوحدي حبيبتي قولي لهم صغار والعيون يا صغار قد سلّمت قد سلّمت ربما وربما فقيرة خزائني حقول حنطتي مقفرة أسقيتني أسقيتني يا ربّ إنني أحببتها أعضّ إنني اختنقت بالأسرار انني أحببتكم والعالم الذي أريده حبيبتي أغلى من العيون ليتها أحببتكم وطيبون كالصقور جارحون قلبهم كاللؤلؤة ، وكاليتيم ليتها من العيون إنها . . أغلى من العيون موحش يولد فيه الرعب والنجوم بالنجمين وضائين سيدي يا سيدي النور والحرية التي أقول ما الذي لكم أقول الملك لك الملك لك أسقيتني والنور ملك والحب والعيون ، والناس جارحون أين الموت أين الموت في بلادي فادح هذا المساء مُدّلي يا رباه حبل العدل داوني وفي المدائن التي والعدل انها ـ خلّصتني ـ خلصتني بالعدل والحرية العيون في غد تولد نفسي من جديد والغد الذي في الفجر يا حبيبتي بالعدل يا رفاقي في طيبون العدل عادل وعادل والعدل ليتها والعدل والحرية . . . . . .

ـ ١٥ ـ

يهوي يرتطم بقاع الحب وتعلو الدوامة . تصدم المفاجأة وجه الطبيب فيرفع يده عن الجهاز ، يحني رأسه ويرفع يده ويرسم علامة الصليب . يدلهم وجه الطبيب الآخر ويقبل نحوك ، ينظر في وجهك وتتمتم شفتاه ويرفع كفيه أمام وجهه . تجري الممرضة وتصطدم بالأنابيب النحاسية وتجهش بالبكاء . لا يبقى الا الصمت وقطرات دموع تسقط فيه .

***

تختلج فراشات الحزن الأبدي ، تحوِّم في سقف الغرفة ثم تحط على صدرك . ترف عين الطبيب ويرفع وجهه ثم يخفضه ويصلّب . ترف عين الطبيب النحيل وراء النظارة السميكة وتتمتم شفتاه . ترف عين الممرضة الصغيرة التي جلست على الكرسي بجانب السرير وراحت تبحث عن منديلها . وتطل العذراء المكتئبة من خلف زجاج النافذة وتنسكب أشعة وجه نوراني من أكفان سحابة . تدمع عيناها تدمع تدمع وتقول :

الليلة تولد في القبر كما ولد يسوع
تبتسم كأنك يا شاعر في المهد رضيع
وتقبل مريم عينيك وفي العين دموع

تتقدم نحوك طيفاً يتجول في بستان الموتى . تنعطف عليك تقبّل نور جبينك . تسقط دمعتها فوق الخد الناصع كالورد .

ترف فراشة كلّ الأحزان . ينهض من سافر في الليل طويلاً ثم تكوّم في ركن الغرفة ، يخطو نحوك كالصنم الذاهل يتعثر في حفر الصمت . يقف أمامك ويتمتم كالأخرس فك القيد وحل العقدة وتحدى الموت . ما زال يتمتم ويقول :

أنطقت لساني يا مولاي الشاعر بعد دهور الصمت
فتّحت العين على عشريٍّ الستره وجنوده
الآن أعود إلى الأسواق وأسعى في رزق البيت

وأمد يديَّ لمطر العدل القادم ووعوده

يذرع أرض الغرفة محتقن الوجه سريع الخطو غضوباً كالأسد الثائر في الأقفاص . يتقدم منك كبطل مهزوم يسقط في الفخ وينهض يضرب جدران السجن العالم يصرخ يحلم بالنصر المحتوم . يتدلى الحزن القاتم من وجه فرعوني صارم . يرفع يده ويشير يحرك الغضب الأزلي المحبوس يدمدم يثور :

في وجهك ألمح فجر اليوم المنتظر
وأبارك وجه السيد يأتي كالقدر
النجم يشير اليك : تعال ، سأكشف سرّي
والأمل يطل من الظلمة كالطفل الضاحك كالقمر
مَنْ مِثلُك يفنى ويُخلَّد في نفس الوقت
قد ذهب الضيف وزال الخوف الآن عرفت :
ما بقي الشعر ومن يشعر فستبقى أبداً من أنت
وسيحيا سرّ الكلمات وتحيا أسرار الصمت

يخفق جناحا الفراشة وتهيم هنا وهناك باحثة عن منفذ . بدأ شعاع الفجر يطل ، يفتح عيناً والعين الأخرى مغمضة في حضن الليل . يصطدم جناحا الفراشة ورأسها الدقيق بالجدران والستائر ومقابض النافذة . تسقط ، تتعثر ، يجذبها النور المصنوع تحوم بعيداً عنه ، تسقط في مستنقع أحزان العالم ، من يشعر بعذاب فراشة ؟ يشير الطبيب ذو الوجه الأبيض إلى الممرضة فتجفف عينيها المحمرتين بمنديلها الوردي وتسحب الملاءة البيضاء من تحت قدميك وتغطيك . يتجه الطبيبان إلى الباب ، تتوقف الممرضة أمامك وتمسح بيديها دمعة بللت طرف الملاءة . يخرجون ويغلقون الباب . تبقى في الصمت وحيداً ، تبقى وحدك . يتقدم منك الشيخ صغيراً كخيال الظل البائس هرب من الجمهور الأرضي اليك . يتعثر في أغلال القدمين وفي قيد الكفن . ما زالت بقع الدم على ذقنه ، ما زالت تلمع كعيون الرعب المحمرة فوق الثوب ، ما زالت كزهور الجرح النازف في شجرته الدموية . يخطو نحوك ، يكشف بأنامله المرتعشة وجهك ، ينظر في المرآة يسبّح يدعو ويتمتم :

يا شاهد موتي وشهيدي
مَنْ في الدنيا سيعوضنا عن شاعر ؟
قم يا ولدي لتسافر فالعالم كافر
يا صاحب دربي وحبيبي .
فلنصعد للنور الصافي
ولنرجع برقاً وسحاباً
أمطاراً للقلب الجافي

يسحب الملاءة على وجهك ويتمتم ، يحاول أن يمسح وجهه فيصلصل القيد ، يسطع نورٌ في عينيه الشاحبتين ويهمس :

« يا صاحبي وحبيبي ـ هل يساوي العالم الذي وهبتَه دمك ، هذا الذي وهبت » .

***

« تعود كي تنام في حضن التراب ، تراب جدنا وأهلنا تنام ، تنام في سلام » .

***

« وقالت لك الأرض : الملك لك ،
تموت الظلال ويحيا الوهج ،
الملك لك .... الملك لك » .
« الانسان الانسان عبر »

***

« ومات ذلك الوديع دوماً في احتفال ، معلماً ورائداً في ؟سنّة الكمال » .

***

« ومن موته انبثقت صحوتي
وأدركت يا فتنتي أننا
كبار على الأرض لا تحتها »

***

« اننا الأغراب في القفر الكبير
إننا ضقنا وضاقت روحنا
القطيع ،
غاب راعيه وطالت رحلته
وهو في بيداء لا ظل بها » ـ

***

أبكي سهماً أخطأ هدفه
ليلاً من غير صباح
أبكي أول طير مات على الغصن
آهٍ أيتها القيثارة
يا قلباً جرح عميقاً بسيوف خمسة[١٣] .....

***

في الخلاء المواجه للقبر
تجلس سيدة هي مصر

تداعب أطفالها الشعراء بغصن من الكلمات الندية
تقرأ وجه حصان يسافر في الحلم
وجه فتى شقه سفر الليل
أيقظ في قاعه حفرتين مبللتين بنار من الدمع
محشوتين برعب البشر

***

واحرّ قلباه :

كل المصابيح ترحل نازفة
ترحل الخيل .. والليل يبقى
يرحل السيف .. والبيد تبقى
يرحل الشاعر - الكلمات
ويبقى البكاء - الخديعة(١٤) .

***

نهر أنت يسارع نحو مصبه ، صوفيّ عجلان الخطو إلى ربّه ، صارعت الموج صراع البطل اليائس ، لم تظفر الا بنصيب الملّاح البائس ، لكنك عشتَ وجربتَ النشوة في الابداع ، وكتبت شهادة ميلاد القادم من رحم الأيام الحبلى بالأوجاع ، جاء - وما كنا ننتظر بهذي السرعة ، لم نتحسب وقع خطاه البشعة . عشتَ الفن ، عرفتَ ، رأيتَ وألقيتَ بنفسك في النار ، لَم تتركنا بعدك زاداً لجراد العصر الجرار ، ريشاً في وجه السيل الزاحف بالمجد أو العار . يا ربّان سفينتنا الغارقة تركت الدفة للتيار ، هل يجرفنا الموج الجارف بعدك أم نصمد للإعصار ؟

***

ضاقت كأس القلب المثقل عن فيض البحر ، فتحطم وتحطمنا معه وانداحت في الرمل الغادر روح الخمر ، والمصباح انطفأ وما طلع الفجر ، واحسرة ليل يجمعني ورفاق العمر ....

***

حزنك .. ماذا أكتب عن حزنك ؟ أين الكلمات تعبر عمّا يجرحني في عينك ؟ خُرْس كل لغات الأرض لا تفصح عن سرّ عذابك أو شجنك . تبصر ما لا نبصر ، تسمع ما لا نسمع ، لو كنا نعلم ما تعلم ، لأمتنا الضحك على الفم ، وبكينا ما شاء الدمع على القدر المفجع .

***

الشعر ملاذك ، بل منفاك الموعود ، وطنك في غربتك على أرض الوطن المنكود ، أمك وأبوك وصاحبك الأوحد ، يتخلى أحياناً عنك ولكن لا يجفوك ، يهرب أياماً أو أعواماً ثم يعود بعقد الحرف المنضود ، تعصف حولك ريح الزيف ، تتكسر على صخر الرغبة والخوف ، يتغضن وجه الزمن السيء بالغلظة والارهاب ، تنطفىء قناديل البهجة فالليل خواء وخراب ، لكن الشعر يجيء اليك فيمسح فوق الرأس المتعب ، وترفرف أجنحة الطير الوافد من بارناس والأوليمب ونجد ويثرب ، فتردد قيثارتك أنين الجرح ونبض القلب .

بعد شهور الوحشة والبعد يعود اليك الصوت الشارد في الصحراء ، بعد التيه اللاعب في نثر الأيام المتشابهة يزورك طيف ملاكك ذي المنقار الذهبي رقيقاً كالعذراء يكتب آخر بيت في شعر الزمن المقتول .

يكفيك من عناء الرحلة الوصول ، وأن نفسك التي تعذبت وجربت تغير الوجوه والفصول ، قد أشرقت بنورها ونحن لا نزال في غياهب الغروب والأفول ...

***

عشت حياتك تتأمل معنى الموت وتحياه كما فعل حبيبك أفلاطون ، تلمس زحف الأفعى في جسد الكون المحبوب الملعون ، زحف الدودة في أصل الشجرة ، وأخذت تمدّ الكفين وتقطف منها الثمرة . لا ليس الكل بباطل ، ليس كقبض الريح ، كذب سليمان ووقع « المازني » في هاوية اليأس يئن أنين جريح ، أحببت حياتك وحياة الناس ، كل حياتك لحظة صدق ، لحظة إحساس ، وقضيت سنيك الخمسين على مسرح هذا العالم تتعثر ، تسقط ، تنهض ، تصرخ من أعماق الدهشة والألم القاسي : كوني يا نفسي من أنت ، وطني هو هذا الوطن وأرضى هي هذي الأرض ، وهنا أقف وأتعذب ، وأثور وأرفض ، أبكي أضحك ، أهتف أحياناً قد أسلمت وتعروني رعشة ألم عذب وممض . جربت جحيم العالم ، ذقت نعيمه ، حتى امتلأت كأسي واستغنيت وأتممت ، فاذا جاء الموت ووضع على رأسي التاج تبسمت ، وهتفت تعال وخذ ثمرتك فقد شيّبها طول الحزن على شجر الليل وشِبْت ، ونادي : أنتَ الحيُّ الأوحد بين الأموات فما أبعدك عن الموت !

***

ما جدوى العيش ؟ ما جدوى الحب ؟ ما جدوى الفن ؟ ماذا أفعل ماذا أفعل ؟ أنا لا أملك الا الكلمة والكلمة تسقط تحت حذاء الرخ المغرور ، تسقط كالطير ذبيحاً تحت عيون الشعب المقهور . ماذا أفعل والسيف الأعمى لا يبصر ، والكلمة حقل مهجور مقفر ، ومثقف هذا العصر يدنسها ، يعبث بجناحيها ، يكسوها أقنعة زاهية كحواة السيرك ويفقأ عينيها كالطفل المأفون ، يحشدها بالفرقعة وبالجعجعة وينفخها كالبالون ، ويظل سؤالك عطشان فهل يرويه

الحلّاج بدمه والمجنون ؟

*****

نحن صحابك ورفاق طريقك : هل أخطأنا في حقك خطأ الصوفية والفقراء مع الحلّاج ؟ هل أحببنا كلماتك أكثر مما أحببناك ، فتركناك ، تموت لتحيا كلماتك ؟ لم نفهم أن اللفظة حجر واللفظ منية أن الكلمات مسيح يحيي الموتى أو مسخ وبغيّ تلد الموت . يا جرح العمر أجبني ، قل لي : أرجوك الصمت . . ضِقْتُ بأحوالي ضقت ، بلياليَّ وأيامي المختنقة في سحب الكلمة ضقت . في كل مساء أنوى أن أهوي في قاع الصمت ، أن أتوحد بالصوت الهاتف من أعماقي ،من أعماق الأرض بلا صوت ، أن أجمع أشلاء العمر المتفتت في لحظة صدق أو حتى لحظة صمت ، ثم تطل عيون تستدرجني الكلمة والكلمة موت ، آهٍ ضقت بكلماتي وبصمتي ضقت .

عشنا في الألفاظ الجوفاء سنين ، نأكل نشرب نتجشأ ألفاظاً حتى صرنا ألفاظاً تقتات على جثث الباطل والبهتان . هل نتعلم من درس حياتك أن نقتصد قليلاً في الألفاظ ؟ أن الكلمة إن لم تَهْدِ الى درب الفعل ، تصبح طبلاً في كف أصم ولعبة طفل ؟ حقاً كنا الأسياد وحقاً كنا ، لما كان لما نلفظ معنى ، لما كانت كلمات العرب تحرك جيشاً وتسيِّر سفناً ، وتشيد علماً أو تصنع فناً ـ حتى غصنا ، ساخت أرجلنا في المستنقع وغرقنا . « ربي ! كيف ترعرع في وادينا الطيب ، هذا القدر من السِفْلة والأوغاد » ؟

كي يعطي الكلمة معناها ـ اختار الحلّاج الموت
كي تعطي الكلمة معناها ـ يا شاهد هذا العصر استشهدت
فمتى يتعلم صنّاع الكلمــة منــك ؟
ومتى يصبح صنع الكلمة تضحية حتى المـوت ؟

كيف نحوّل كلماتك أفعالاً تمطر بالخير ؟ ماذا نفعل كي لا نترك شبح الفقر يعربد في الطرقات ويفجر ؟ ـ مُدَّ الينا كفك ، أدفئنا من أنفاسك ، لا تحرمنا صوتك واشاراتك ، واسأل ربّك أن يلهمنا قول الحق ، ويؤيدنا ـ حباً فيك ـ بروح الصدق ، ألهمنا أن نخلع ثوب الألفاظ ونخرج للناس كما خرج الحلّاج وسقراط ، أن نصهرها في نار الغضب ونغمسها في خبز الفقراء ، فلعل الرقبة تنجو من مشنقة الإحباط ـ ألهمنا ، علّمنا ، لا تحرمنا صوتك حتى نجلد ظهر الأحياء ـ الموتى بسياط وسياط ، حتى نحلو في عينيك ونبصر أنفسنا في مرآتك ، في مرآة الشعب ومرآة الله . . .

*****

كيف رحلتَ يا أعز الراحلين ؟

متى نعود للقاء والحديث ذو شجون ؟ إن كان في الموت العزاء فلأكن اليك أول المسافرين .

*****

يا كم دعوتني الحكيم ودعوتني المسيح ، كم مسّحت كفاك جرح قلبي الجريح ، وأدركت عيناك أنني مقيد كسيح ، كأنني المشلول لا أعيش لا أموت لا ألوذ بالكتمان لا أبوح . غرقت في بحار علمي العقيم غطت جثتي المتون والشروح ، وكم طرقت باب حبك الكبير ، وكم طعمت يا أمير من بائدة السرور ، وعدت في الجراب كسرة لقلبي الكسير ، وقطرة تبلّ غلّتي في وهج الهجير . وكنتُ ثم كنتُ يا صديق ، ولم أزل كجثة الغريق ، مطفأة العيون في كهوف حكمتي العقيمة الدروب والجحور والشقوق ، أبحث عن حقيقة تلوح ثم تنطفي كأنها البروق ، أبحث عن طريق ، ومن فؤادك الذي رأيتَ فيه الله والانسان يبدأ الطريق ـ فهل تُراني بعد ما رحلتَ أبصر الطريق ؟

*****

بدموعي تمتلىء العين ولا أجد عزاء ، يتسلل شيطان القلق لفرشي كل مساء ، يحضنني ، يغرز قرنيه بعنقي ، يوحي ما يوحي من أسرار الحمقى والحكماء ، فمتى أنجز وعدي لك يا خير أحبائي ؟ ـ أمسكتُ بحبل الصمت الممدود فلم يسقط ثمري الموعود ، وتعثرتُ على درب الكلمة والدرب قيود وسدود . ـ جفت سحبي وتسرب مائي في الأخدود ـ يا روح حبيب العمر المفقود ، باركني وامسح بيديك على رأسي المكدود ، فلعل المطر يعود ـ لعل المطر يعود . .

*****

كيف أصدق ؟

الرفاق يتلقون العزاء . أحضنهم ويبتل وجهي بدموعهم . فاروق يعانقني وتتداح المرارة الى فمي وقلبي . مشلول مغلول مذهول . عبد الرحمن ينشج في ركن وحيد ، عيناه دموع تنحدر كالشلال .

النعش يقتحم الصفوف كالبطل المأسور ، تسنده أكتاف الأحباب وأيديهم . الفجيعة على الوجوه التي ترفض التسليم . يا أيها الراكض الى أين ؟ أهي دعابة جديدة ؟ أيمكن أن تكون جاداً ؟ أطل برأس النسر الجميل الجليل واصرخ بملء صوتك المتهدج الجريح : ليس هذا عرسي ولا مأتمي . انصرفوا . انصرفوا . انصرفوا . . يا صوت ضميري وضمير بلادي ، أخرج من هذا النعش ونادي . أخرج لا تتمادى . أريد أن أداعبك . أسمع منك عجائب العباد والبلاد والأحوال . والزمن عجيب يلد الخرافات العجيبة ـ أهي خرافة جديدة ؟ هيا لا تسرف في صمتك . نادني يا حكيم كما تفعل في كل لقاء ، فالحكمة توجعك وتوجعني في زمن الحمق الأسود . أنثر ضحكاتك تمسح عني وحل الرحلة ، أشعـلْ مصباحك كي أجد طريقي في ليل المحنة ، أدفىء قلبي الغارق في ثلج الحكمة ، حرك صنمه ، ابعث فيه لعازر ، مُرْه أن ينفض نومه ، ويواجه يومه .

تعال نغادر هذا المسرح ، هذا الوهم الأسود ، تعال بنا بعيداً لنثبت أن اللعبة وهم ، هذه العربة وهؤلاء المشيعون وهم ، فحضورك هو الحقيقة الوحيدة الباقية بعد أن يشيع الميت وينصرف الممثلون ـ تعال تعال فأنت حاضر لا تغيب .

عين الشمس لا تزال تسطع ، الريح تتنفس ، الطيور ترفرف في السماء ، الأطفال تولد كل لحظة والأشجار تنمو والعجائز يجرون أقدامهم ويسعلون ، الكتّاب يفكرون في عمود الصفحة الذي سيسودونه والشعراء يصطادون عصافير الكلمات السود ويستعدون ـ لم أنت وحدك ساكن هناك ؟ أأنت الذي يحملون ؟ أم أنت الذي أحمله في دمي وألقاه مساء اليوم حسب الموعد القديم ؟

لا لا لا . وهم . كذب . كابوس . أمشي في كابوس الخمسين وأنت تطل عليَّ من الشرفة ، شرفة مسكننا في مقتبل العمر ـ تذكرني بالعهد القائم والعهد أمين[١٥] . سيذهب الجميع ثم تسدل الستار .

وأنت أنت فوق الوهم والتمثيل . أنت حاضر ولن تغيب . كيف أقول كُنْتَ ، كيف أستطيع ؟ وأنت يا حبيب نبض القلب ، ومضة العيونْ ، وأنت ـ ما حَيِيتُ ـ ساكن في القلب والعيون ، وكائن ودائماً تكون ؟ . . .

يا صاحبي وحبيبي . . . . .
« قد كنت عطراً نائماً في وردتك ـ لم انسكبت ؟
ودرّة مكنونة في بحرها ـ لم انكشفت ؟ » .
وهل يساوي العالم الذي وهبته دمك ـ هذا الذي وَهَبت ؟
لا . . لا أقول قد رحلتَ بل أقول في غدٍ سنلتقي ، كما وعدت .

***

عبد الغفّار مكاوي

هوامش وملاحظات

(١) كل ما بين فاصلتين صغيرتين من شعر صلاح عبد الصبور . أما بقية السطور الشاحبة فهي مني : فراشات عاجزة تحاول أن تحوم في نوره وترفرف في سمائه . وهذه البكائية تفترض الاطلاع على مؤلفات الراحل العزيز ، دواوينه الستة ومسرحياته الشعرية الخمس وكتبه النثرية والنقدية ، وخصوصاً سيرة كفاحه مع الفن « حياتي في الشعر » ـ وهي محاولة لتقمص وجدان الشاعر وإعادة بنائه وهو على طريق رحلته الأخيرة ، منذ أن غادر البيت الذي كان مدعواً اليه بعد شعوره بألم شديد في صدره ـ حتى سقوطه في الغيبوبة . واذا لم يكن قد قدّر لي أن أصحبه على هذا الطريق ، فقد صحبته على طريق العمر ، وعشت فرحه وجرحه في مئات الأيام والليالي التي عشتها معه . لا شك أن تفاصيل السفر الأخير هنا مختلفة عمّا جرت عليه في الواقع . ولكنني أسترجع الأحاسيس وأتابع خطى الحوار الباطن كما تصورتها من قراءتي لأعماله ومن واقع رحلة العمر لا من وقائع السفر الأخير .

(٢) بيت أبي العلاء المشهور :

وهل يأبق الانسان من ملك ربه　　فيخرج من أرض له وسماء

وطالما تمثل به العزيز المسافر وردده ، وكأنه الحكمة الأخيرة والكلمة النهائية في وجود الانسان . أما عن حبه الكبير لرهين المحبسين فقد أكده في « حياتي في الشعر » وتمنى أن يتفرغ لكتاب يشرح فيه بعض أشعاره ويأخذ بيد القارىء للدخول في عالمه . واذا لم تخني الذاكرة فقد نشر بالفعل فصلين منه في مجلة « المجلة » المحتجبة ومجلة الثقافة . وبقي حبه وارتباطه بالثائر العظيم المهزوم أشبه بالحبل السرِّي الذي يربط الجنين بالأم والانسان بالأرض . ومن سوء حظنا أن مشروع هذا الكتاب لم يكتمل ، شأنه شأن عديد من المشروعات التي لم تر النور .

(٣) لم يعد سراً أن هؤلاء الأصدقاء الثلاثة هم على الترتيب : الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي ، والشاعر المجدد الثائر أمل دنقل ، والناقد الجاد وأستاذ الأدب العربي جابر عصفور .

(٤) من قصيدة للشاعرة اليونانية سافو . وكنت قد أهديت كتابي عنها (١٩٦٦) للراحل الحبيب ، واتفضل بمراجعته في الصفحة الأدبية بجريدة الأهرام .

(٥) البيت لعبيد بن الأبرص .

(٦) ميّ ومعتزّة هما ابنتا الشاعر الحبيبتان .

(٧) كانت جامعة كمبريدج قد وجهت الدعوة للشاعر ليحاضر فيها ، ولولا محنة لقمة العيش ولعنة البيروقراطية اللتان تلتهمان عمر المبدعين في بلادنا لأتيحت له نعمة اللقاء بنفسه والبقاء أياماً أو أسابيع في جو العلم النقي والريف الهادىء والنفوس التي لم تفقد معنى الحب والاحترام .

(٨) مسرحية شعرية حدثني الصديق المسافر مرتين أنه بدأها وكتب بعض مشاهد منها . وقد اطلعت بعد رحيله على حديث ذكر فيه أنه يعالج فيها مشكلة الاصالة والمعاصرة التي اشتعلت في سنوات الهزيمة الأخيرة . وعسى أن تنشر هذه المشاهد لنتأكد من جناية الروتين على الشعراء . .

(٩) عنوان الذكريات التي دأبت مجلة « الدوحة » على نشرها في الشهور الأخيرة ، وأرجو أن تظهر قريباً في كتاب . وقد ذكرني فيها وفي « حياتي في الشعر » ـ كرماً منه ومداعبة حلوة ـ وأشاد بقراءاتنا المشتركة لبعض شعراء الغرب . وأشهد أن كل لحظة عشتها معه ونعمت فيها بحضوره وحبه هي كل الفضل عليَّ إلى آخر نفس فيَّ .

(١٠) السطور الأخيرة تنويعات على أبيات من قصيدة الشاعر المفكر الصديق مجاهد عبد المنعم مجاهد : « الى صلاح عبد الصبور ، روحاً حزيناً كالناس في بلادي » ، مجلة « الدوحة » ، عدد أكتوبر ١٩٨١ ، ص ٥٠

(١١) مجموعة من أصحاب العزيز الحاضر الغائب وأصدقاء عمره : الشاعر الناقد وأستاذ الأدب العربي الدكتور أحمد كمال زكي ، الروائي ودارس الأدب الشعبي العربي فاروق خورشيد ، القاص والكاتب الاذاعي محمد عبد الواحد ، الروائي والكاتب المسرحي وكاتب الاذاعة والتليفزيون عبد الرحمن فهمي ، الشاعر والناقد وأستاذ الأدب العربي الدكتور عز الدين اسماعيل .

(١٢) كان صديق العمر يداعبني بهذه التسمية التي لا أستحقها . .

(١٣) السطور الخمسة الأخيرة عن قصيدة « الجيتار » للوركا ، وقد ذكرها في « حياتي في الشعر » ، وأضفيتُ عليها الايقاع .

(١٤) المقطوعتان الأخيرتان عن قصيدة « حدث في النصف الثاني من الليل » ـ وهي المرثية التي كتبها الشاعر العربي الكبير من اليمن ، الدكتور عبد العزيز المقالح ونشرت في جريدة « الثورة » في صنعاء .

(١٥) أقمنا ـ صديق العمر وأنا ـ في مسكن واحد في حيّ النيل وحيّ العجوزة بالقاهرة ما يقرب من السنتين (بين سنتي ١٩٥٦ و ١٩٥٧) عندما انتقل إلى مسكن آخر بالقرب من دار روز اليوسف التي انضم إلى هيئة تحريرها بعد استقالته من التدريس ، واتجهت أنا في منحة دراسية إلى ألمانيا ـ وإني لأظلّ الآن بكل الحب والعرفان على هذه الأيام التي عرفت فيها الانسان الكبير والمثقف العظيم وأعيشها كما أعيش غيرها حاضراً حياً الى آخر نبضة في القلب وومضة في العين .

خاتمة : لا أجد تعبيراً عن حياة صلاح وكفاحه لمعرفة نفسه ومجتمعه وعالمه خيراً من كلمات « روسو » في مقاله المشهور عن الفنون والعلوم : « إنه لمنظر جميل وجليل أن نرى الانسان يرفع نفسه من العدم بجهده الخاص ، ويبدد بنور عقله تلك الظلمات التي لفته بها الطبيعة (لنقل : تلك الظلمات التي لفته بها الحياة العربية ، في ليل الهزيمة والقهر والتخلف والثرثرة) . إنه ليرفع نفسه فوق نفسه ، وينفذ بروحه إلى أطباق السماء ، وينطلق كالشمس بخطوات جبارة عبر الفضاء الشاسع للكون . أما الأمر الذي يبقى هو الأعظم والأصعب ، فهو أن يعود إلى نفسه ، ليدرس الانسان ويعرف طبيعته وواجباته وغايته » .

ومع أن هذه العبارات العاطفية المتحمسة لا تصور عذاب صلاح تصويراً دقيقاً ، إلا أنها تضع أيدينا على هذه الحقائق التي لا يدركها الا أصحاب طريقه وجرحه : لقد استطاع أن يرفع نفسه بإرادته من العدم العربي المحيط به إلى الوجود الشعري الذي يبدد هذا العدم ، ولو في لحظات الخلق المتاحة . هذا الارتفاع فوق العدم الذي يغرق هو وزملاؤه المبدعون في مستنقعه كل يوم - قبل الإبداع وبعده وفي أثنائه - قد مكّنه في نفس الوقت من العلو فوق نفسه المحدودة ، المقيدة في أغلال المكان والزمان والموقف الأدبي والتاريخي والاجتماعي والسياسي الذي يحاصره ، أما المناطق السماوية العلوية التي يذكرها النص فهي قصائده ومسرحياته وإيقاعاته الشعرية وقراءاته ومشروعاته - البديل الفني عن ذلك العدم الذي نختنق فيه ليل نهار . وفي النهاية يعود صلاح الانسان إلى نفسه - بعد أن ينطفىء وهج اللحظة وتهوي أجنحتها - يعود لينعطف الى الداخل ويشتبك في الصراع اليومي مع قبح الحياة اليومية ، ينعطف اليه لكي يفحص طبيعته وواجباته وغايته .

هذه الحياة اليومية التي اختفت منها المحبة والتقدير والثقة والاحترام المتبادل ، وأصبحت لا تسمح بنموّ حياة إنسانية سليمة ، ناهيك عن حياة مبدعة ، وأتى على خضرتها جراد الكراهية والحقد والثرثرة وعدم الاكتراث - هذه الحياة اليومية التي غطت وجهها الحجب والأقنعة التائهة . وظلت تمدُّ حبال مشنقتها كل صباح - كيف لا يدينها ويسجل علامات التصدع والانهيار في بيتها الآيل للسقوط ، كيف لا يفضح القردة والأفاعي والثعالب المتربصة وراء الأقنعة (بشر الحافي !) ؟ - غير أن الشاعر الذي يحاول أن ينتزع نفسه من مستنقع الخراب والبلاء ليعتصم بلحظات البراءة والنقاء (يا من يدلني على طريق الضحكة البريئة والدمعة البريئة !) ، هذا الشاعر الذي يجوس عارياً مكشوف القلب في أسواق المدن الجاحدة المتبلّدة الحسّ - يشتاق على الدوام الى « مدينته المنيرة » التي ينام فيها الابناء في أحضان الأمهات ، مدينة الرؤى التي تشرب ضوءاً وتمجّ ضوءاً ، مدينة المستقبل التي كُتب على المغتربين المحتجين منذ أفلاطون الى اليوم أن يحلموا بها وأن يتركوا العالم وهي جنين أسطوري في بطن الغيْب ! ويظل النقاد المتفائلون يدينونه بحزنه ، ويطالبون بطرده من المدن السعيدة التي يقلق نومها ، دون أن يكلفوا أنفسهم بالسؤال : ومن المسؤول عن هذا الحزن كله ؟ ! - هذه المدن المقنعة المغتربة عن نفسها ، كيف لا يباح للفنان أن يغترب عنها ؟ كيف لا يسمح له بأن يكون هو نفسه ، أن يحقق هذا المثل القديم الذي تقوم عليه الحقيقة والأصالة ؟ أليس هذا هو دأب المفكرين والمبدعين في كل زمان ومكان ، ألا تتحمل الخسارة الفادحة في حاضرنا ومستقبلنا اذا حرمناهم من هذا الترف البائس الضئيل : أن يقولوا لنا « لا » ، ولأنفسهم والقيم الباقية « نعم » ؟ ولكن مجتمعاتنا التي اختلطت فيها كل القيم ، وجثم عليها كابوس القهر وعبيده لا تطيق هذا . إنها تتربص بكل صوت صادق ، وتجدل مشنقة التعذيب لكل بادرة حياة . وهكذا يقع الإبداع العاري من كل سند يحميه فريسة الكلاب التي تنهشه من كل ناحية : عبيد السلطة المتخلفة وخدمها وحشمها ، الثرثارين الكذبة من يمين ويسار ، البيروقراطيين زبانية الموت وسدنة الجمود والركود والتحجر ، أوباش العصر وجلاديه الجدد وطواويسه المزيفين الذين يجوسون بيننا كالكوارث ويبرعون في رصف بيانات الادانة والاتهام قبل أن يتعلموا ألف باء الحب والفهم والاحترام (إذا فرغت جعبتهم الفارغة لم يعدموا حربة يسددونها : شاعر مغترب عن مجتمعه ، غير ملتزم وغير تقدمي وميتافيزيقي ووجودي !) وبدلاً من ضمّ صوتهم الى الأصوات الصادقة لرفع ركام الظلم ورواسب التخلف وأقنعة البطولة الكاذبة تراهم ينادون - كما نادى أفلاطون قديماً بحسن نية أخلاقية ! - بطرد الأصوات النقية التي تزعج أحلام المدن الغافية وفرسانها المهزومين ! هذا هو الأمر المحيِّر في حالتنا اليوم ، كأننا قد التصقنا بأقنعتنا فلا نقوى على انتزاعها لنتحسس وجوهنا الحقيقية ، كأننا نصنع أغلالنا بأيدينا ونحب أدوار عبوديتنا التي نؤديها بلا وعي ولا حرية ونكره أن نكون أنفسنا ونواجه واقعنا ونحيا في النور والحوار . والنتيجة ؟ هذه اللعنة التي عبر عنها طه حسين عندما قال إننا لا نعمل ولا نحب لغيرنا أن يعمل . فمتى نتعلم أن اليد التي تجرح هي اليد التي تشفي الجرح ، وأن خلاصنا لن يتم إلا بأيدينا ولن يتحقق إلا «بالعمل» . أقول العمل لا القول - الذي نحقق به ذاتنا ومجتمعنا وننقذ أنفسنا وحاضرنا ومستقبلنا المهددين بالخراب والانقراض -

***

لم يكد يمرّ يوم واحد على رحيل شهيد الشعر والعصر حتى اشتعل الجدل العقيم : من الذي قتله وكيف قُتل ؟ ما التهم التي سُدِّدت سهامها إلى قلبه حتى اختنق وخذلته طاقته على تحمل الجراح ؟ وأنا أنزه نفسي عن المشاركة في هذا الجدل ، كما أنزه الأصدقاء الذين كانوا معه في ليلة الوداع . فالثلاثة الذين كانوا معه أصدقاء أحمل لهم الود والتقدير . وحتى الرسام التعس المجهول الذي كان معهم وسمعت أنه لم يتورع عن قذفه بأبشع التهم على مشهد من زوجته وابنتيه - أدعو الله أن يغفر له ويسامحه (يعلم ربُّ الغيْب حقيقة ما قالوه وما فعلوه . ولقد كنت على موعد اللقاء بالصديق المسافر في نفس اليوم الذي قدر عليَّ أن أشيعه فيه) لكل أجل كتاب . ولم يبق إلا التسليم . غير أن هناك حقيقة لا بد أن أشهد بها وأشهد عليها كل المبدعين المخلصين في أمتنا العربية : لقد ظل صلاح يُقتل طوال العشرين سنة الأخيرة ، وظلت الفخاخ تُنصب له من جهلة اليمين وأدعياء اليسار (في الجو الذي تعذب فيه جيلنا التعس فقدت هاتان الكلمتان معناهما كما فقدت كل القيم معانيها .) وتبقى قضايا وأسئلة أكبر منا جميعاً : « لماذا يُقدّر على أفضل أبنائنا وإخوتنا أن يسقطوا ضحية الضنى والقهر والتعذيب ؟ إلى متى نَضِنُّ عليهم بالكلمة الطيبة طوال وجودهم معنا ، فلا نقولها - إن قيلت على الاطلاق - إلا بعد غيابهم عنا(*) ؟ كيف نستردُّ المقدرة على الحب والاحترام - على الأقل لمَنْ هم أولى الناس بأن نضعهم في حبات عيوننا وقلوبنا ؟ إلى متى نظل أعدى أعداء أنفسنا ، وإلى متى نختنق بالصغار والادعاء ونتطاول بعضنا على بعض ؟ هل كتب على الموهوبين أن يكونوا دائماً ضحية الحطّابين الفقراء من كل موهبة ؟ واذا صحَّ ما يقوله الحلّاج في هذه البكائية « يُقتل كل الشعراء بكل بلاد الله » ، فهل كتب علينا أن نكون أبشع البلاد قتلاً لأبنائنا المبدعين في كل مجال ؟ ! ألا يكفي أننا مهزومون حتى نهزم أنفسنا بأنفسنا ؟ أنحاول برفع أصواتنا القبيحة أن نتصامم عن أصوات أخرى أولى بأن ننتبه اليها : أصوات الآلات والحفارات التي تقيم المستعمرات والمستوطنات على أرضنا السليبة ، وأقدام العدو التي تدوس جثتنا الممددة بلا وعي ولا حياة ؟ ألم تدق ساعة « العمل » التي توقف طاحونة « القول » التي سحقت كرامتنا وتوشك أن تسحق وجودنا نفسه واذا كان قدر الأدباء والكتّاب أن يتكلّموا ويكتبوا فمتى تصبح كلمتهم فعلاً وكتابتهم عملاً أو دليلاً يهدي إلى عمل ؟ متى نتعلم من عذاب صلاح ورحيله أن الجو الذي نعيش فيه هو الجو نفسه الذي لفظت فيه حضارات منقرضة آخر أنفاسها ، وأننا محتاجون - هنا والآن ! - لجو جديد يقوم على الحرية والحوار واحترام الانسان والعمل المبني على المنهج والعلم والحبِّ ؟ أسئلة كثيرة لا أستطيع أنا ولا من هم أفضل مني من الواقفين في الصف نفسه الذي وقف فيه صلاح أن نكتمها عن أمتنا . فمتى تفتح عينيك وعقلك يا شعبي المسكين ؟ ومتى تستيقظ للخطر الأكبر يا وطني الأكبر ؟ !

***

ربما قيل إن الراحل العزيز لم يلتزم بالتقدّمية » كما يفهمها أنصارها أو أدعياؤها . ولكن لا شك أنه بقي محارباً صلباً للارهاب والاستبداد والتسلّط بكل صوره ، وأنه ربما تعاطف مع التقدميّة لو أنها لم تأت على أيدي الجلّادين بمختلف أشكالهم . لقد ظل عدواً لكل قهر أو إلزام ، لا لأن الالزام شرٌّ أخلاقي فحسب ، بل لأنه - كشاعر - لا بد أن يرتاب في كل من يؤيده تحت أي شعار أو تبرير أو تعميم . إن الشاعر لا يكون شاعراً جيداً أو رديئاً لأنه تقدّميّ أو ايديولوجي بل لأنه قبل ذلك شاعر أو غير شاعر . والفن ليس دعاية تريد من الشعراء أن يكونوا دعاة . فلا عجب أن يصطدم الشاعر والفنان صاحب الضمير الحرّ والرؤية المستقلة بمثل هذه السلطة (التي يضطر أن يكسب لقمته في ظلها) ، ولا عجب أن ترتاب هي أيضاً فيه وتسلط ببغاواتها لنهش لحمه والتربص به . ولكن القيم الفنية لا تخضع للقيم السياسية ، والموهبة المبدعة لن تكون

(*) أذكر الصامتين من أساتذة الأدب عندنا بأن عشرات الباحثين في أمريكا وأوروبا يعكفون منذ سنتين على دراسة أعمال صلاح ، وأن الندوات قد أقيمت هناك بعد رحيله . وأمامي الآن ترجمة جيدة لمأساة الحلّاج بعنوان « موت الصوفي » قام بها أحد المستشرقين الألمان وراجعها صديقنا ناجي نجيب المقيم في برلين . وينتظر صدور « مسافر ليل » عن دار النشر نفسها عن قريب . أذكرهم أيضاً بأنه كان قبل رحيله المفاجىء يستعد لحضور عرض مسافر ليل والأميرة تنتظر على بعض مسارح يوغوسلافيا والنمسا ، كما كانت الدوائر الأدبية في كمبريدج تنتظر تلبية الدعوة الموجهة اليه أيكون الاغراب أحنَّ علينا من أنفسنا وأقدر على تقديرنا من بعض أهلنا ؟ يا رب ! كيف أعطيتنا القدرة على كل هذا الجمود ؟ !

حرة إذا وضعت يدها في قيود الاعتقاد المذهبي . ربما تقول الأجيال الجديدة من النقاد إن صلاحاً وجيله ظلوا ثوريين رومانتيكيين في شعرهم ونثرهم ، فرديين في رؤيتهم للحياة . قد يكون هذا صحيحاً وله أسبابه التاريخية والاجتماعية . ولكن هذه الأجيال - التي نتمنى أن تكون أسعد حظاً منا - لا تستطيع أن تجردهم من إخلاصهم ووطنيتهم وصدقهم مع أنفسهم ودفاعهم عن قضية الحرية والعدل بمعناها الفني والانساني الشامل . لا شك أن للفن دوره في المجتمع ، وهو في النهاية نتاج هذا المجتمع . ولكن اغتراب الفنان العربي عن مجتمعه في السنوات الثلاثين أو العشرين الأخيرة ظاهرة واقعة تستحق الدراسة لا الادانة . ولا يجب أن ننسى أن الفن المغترب فن سياسي أيضاً ، مهما ابتعد عن سياسة معينة . وهو في النهاية تعبير عن مختلف الضغوط التي جثمت على صدر الفنان وألجأته للاغتراب والاختناق بالعذاب والحزن والصمت . وبدلاً من أن نقول له ينبغي أن يكون شعرك وفنك كذا وكذا ، علينا أن نكافح لازالة القيود عن طريقه ، وخلق المناخ الذي يستطيع أن يبدع فيه ويتحمل مسؤوليته . إن الفنان إنسان قبل أن يكون صاحب مذهب . والوظيفة الأولى للشعر ولكل الفنون هي أن تجعلنا أعمق وعياً بإنسانيتنا وبالعالم المحيط بنا .

لا أدري إن كان هذا الوعي سيجعلنا أكثر أخلاقية أو أكثر فعالية ، ولكنه سيجعلنا بالتأكيد أكثر إنسانية . يكفينا من الشاعر أنه ينبهنا إلى الوحوش التي تسعى في زحام المدينة (بشْر الحافي) أو الوحش الذي يحكم عليها بالموت وهو نفسه جثة ميتة (بعد أن يموت الملك) . أما خطة العمل التي تجعلنا نتخلص منهم فليست وظيفته . إن الشعراء بطبيعة اهتماماتهم وصنعتهم الفنية - كما يقول « أودن » في مقاله عن الشاعر والمدينة - غير مهيئين لفهم أمور السياسة أو الاقتصاد . إن اهتمامهم الطبيعي ينصب على الأفراد والعلاقات والتجارب الشخصية ، بينما السياسة والاقتصاد يهتمان بالأعداد الكبيرة من الناس ، أي « بالمتوسط البشري » (والشاعر يضيق الى حد الموت بفكرة الانسان العادي) والعلاقات غير الشخصية وغير الارادية الى حد كبير . إنه يحدثنا عن مدن المستقبل لا عن أزمات البطالة والتضخم والاسكان ، عن معاناة الانسان في مجتمعاتنا الحديثة التي يتضاءل فيها ويتشوه و « يتشيأ » ويغترب ويُمتَحن في كل لحظة في إنسانيته ووجوده الحقيقي الأصيل ، لا عن العامل والفلاح والموظف ومشكلاتهم المحددة . ورسالته هي تغير ضمير الفرد وقلبه ووعيه ، أما تغير ظروفه الواقعية فأمر متروك للساسة والعلماء والمصلحين . إنه يطرق أبواب الخلاص لا أبواب الاصلاح ، ويأخذ بأيدينا على طريق الحقيقة لا طريق الواقع المحسوس . والمهم - وليس هذا قليلاً - أن يكون أميناً وصادقاً وقريباً من قلوبنا . .

أليس أمام الشعر إذاً فرصة للفعل والتغيير ؟ أكان يمكن أن يظل العالم على ما هو عليه لو خلا من كل الشعراء ؟ وأليست قضيةالعدل الاجتماعي أهم من كل قضايا الفن ؟ وإنصاف المظلومين والمضطهدين - أليس أجدى من عشرات الملاحم والدواوين ؟ - ولكن المشكلة تكمن في فهمنا لمعنى الفعل والتأثير . لا شك أن العالم كان سيفتقر إلى الحرية والعدل والجمال - أكثر من فقره المزمن فيها - لو خلا من أمثال هوميروس ودانتي والمتنبي والمعرّي وشيكسبير وجوته وموزار وبيتهوفن وشوقي وسيد درويش . ولا شك أن واقعنا كان سيبدو أكثر قتامة وبؤساً لو خلا من صلاح وزملائه المجددين والمتمردين . لقد قدموا لنا الشهادة الحقيقية على ظلم واقعنا وظلامه وتفاهته وتمزقه . أما الفعل المؤثر الذي يغير منه فقد يأتي أو لا يأتي على أيدي غيرهم . والمهم أن قصائدهم نفسها « أفعال » باقية في عالمنا ، قيم مؤثرة على قلوبنا وعقولنا ، تعطينا الحماية والأمان الخلقي والعقلي والوجداني وتزيدنا وعياً بإنسانيتنا .

إن المثل الأعلى للشاعر والانسان هو الذي يقترب من وحدة الشعور والعقل ، والفكر والفعل ، فكيف نتهمه في ظل القهر والتمزق الحالي بأنه حزين وسلبي ؟ أليس تجسيداً نقياً لحريتنا ووحدتنا المفقودة ، لعذابنا وتعذيبنا لأنفسنا ؟

والمجتمع الأمثل هو الذي يكفل الحرية الكاملة للاختيار الأخلاقي - فهل في بلادنا نظام وحيد يسمح بهذا المجتمع اللائق بالانسان ؟ إن الدعائي الثرثار ورجل السلطة الحديدي يتهمان الشاعر بأنه يعزف ألحانه في الوقت الذي تحترق فيه روما (هذا إن كانا يشعران بأنها تحترق ؟) . وهما يطالبانه بأن يستغل قدرته على الكلمات في إقناع الناس بما ينبغي أن يفعلوه . ولكن مهمة الشعر ليست هي إخبار الناس بما يفعلون ، بل مهمته - كما قدمت - هي تعميق معرفتنا بأنفسنا وبالعالم الحقيقي ، بالخير والشر ، بالجمال والقبح ، بالحرية والعبودية . ربما استطاع بذلك أن يجعل ضرورة الفعل أكثر إلحاحاً وأن يجعل طبيعته أكثر وضوحاً ، بحيث يقودنا إلى اتخاذ القرار العقلي والعملي والأخلاقي الحرّ . - ومع ذلك فلا بد أن نقتصد في الكلام عن رسالة الشعر والتزام الشاعر . . . الخ وغير ذلك مما ضيعنا فيه السنين الطويلة بلا ملل أو كلل . ولا بد أن نقول لأولئك الذين يتجهون للشعر طلباً لرسالة أو برنامج إصلاح : - إنكم تطرقون الباب الخاطىء . ولا بد أن نقول لهم أيضاً إن الشعر يضيء ويكشف ، ولكنه لا يُملي ولا يعلّم . إن الفنان لا « يُحدث » شيئاً بمعنى الفعل المباشر - اللهم إلا أن يجعلنا نؤمن بالحياة ونفرح بها ونمجدها ، ويزيدنا وعياً بالحرية والانسانية ، لأن مجاله كما قلت هو عالم القلب لا عالم السياسة والاقتصاد .

إن المعذِّبين في الأرض (بتشديد الذال المكسورة !) قد أرهقوا صلاح عبد الصبور بالكلمات الضخمة والشعارات الغليظة ، شأن كهان الأروقة الكذبة والخطّابين الفقراء من كل فنان ناجح موهوب . طالبوه بأن يعبر عن أفكارهم هم ، أن يضع آراءهم هم في شعره - فأي تعذيب للضمير الحرّ أقسى من هذا التعذيب ؟

إن المجتمع الموحد في العاطفة والأهداف والكرامة والآمال هو الذي يمكن أن يتفجر بالأدب الناضج والشعر الصادق . هذا المجتمع الموحد الذي يكون فيه كل الأفراد كالبحارة المشاركين في شدِّ حبال السفينة هو الذي يحلم به الشاعر . فلنوحد مجتمعنا العربي ، ولننهض به من حضيض التخلف ، ولنداوِ جراح كرامته قبل أن نتهم الشاعر ونديِنه بسؤالنا : لماذا أنت حزين ؟ . .

إن الحياة كلٌ واحد مؤلف من وحدات كلية ، تتألف بدورها من وحدات كلية أصغر . هناك العضو المفرد ، والفرد الانساني . وهناك الفرد والأسرة ، والأمة والعالم ، وكلها بنيات أو مجموعات على علاقة بمجموعات أكبر . وكل مجموعة على حدة مختلفة عن سواها ، ولكن ليس لها معنى إلا في علاقتها بالمجموعات الأخرى . ليس هناك كل بغير الجزء ، ولا أي جزء بغير الكل . وكذلك ليس الكل مجرد محصلة للأجزاء ، وإنما هو شيء جديد . هذه مسلمات استقرت اليوم في العقل الحديث . فلماذا أكررها هنا ؟ لأنه يحدث في بعض الأحيان أن يعمل الجزء وكأنه ليس جزءاً من كل أكبر منه (كما في النشاط السرطاني في الجسم الحيّ) . والنتيجة في هذه الحالة هي المرض المميت والتدهور والانهيار . هذا ما حدث للمجتمع البشري عبر التاريخ ، وهو ما حدث لمجتمعنا العربي في السنوات الأخيرة . فقد الجزء صلته بالكل ، فقد المجتمع صلته الحميمة بالمجتمع المجاور له ، انفصل كل فرد واغترب عن كل فرد ، تورمت بعض الأجزاء وبعض « الكلات » أو الوحدات الصغرى توَرماً سرطانياً وغفلت عن علاقتها بالكل ، وفقد الوطن الأكبر علاقته العضوية بالعالم الذي يعيش فيه . والنتيجة ؟ هذا التمزق والضياع والانتحار المنذر بالانقراض . وسط هذا الخراب يقف الشاعر وحده ، يواجه الزلزال والمباني المتصدعة ، عارياً في مهب الرياح والأعاصير . يقف وحيداً عارياً ليقول لنا : أنتم محبوسون داخل انفسكم ، معزولون عن بعضكم ، تائهون عن الحقيقة ، تسعون وراء الشمس ، والشمس في ظهوركم . لا كل هناك إلا الأنا الصغيرة الأنانية . إني أعيدكم للكل ، أرجع العضو لجسده ، والفرد لمجتمعه ، والمجتمع لوطنه الأكبر ، والوطن للعالم والانسانية . أنا ضمير التاريخ المثقل بالذنب . هل يُسمع صوتي ؟ هل تتركني حشرات السلطات والشعارات لأتم أغنيتي ؟ عودوا للكل - لانسانيتكم ، لوعيكم ، لعالمكم ، لحقيقتكم . أنا شاعر المحنة « أقول لكم » وأتنبأ بالموت وأبشر بالميلاد . قوموا ، احتجوا ، اختاروا وتحملوا مسؤولية الاختيار . اهتزوا . اقشعروا من فُرقتكم وهوانكم . افعلوا شيئاً . انفجروا أو موتوا . أنا الشاعر : ضعيف ومعرض للخطر ، أقول كلمتي وأتحطم . عشت أنادي بمجتمع الحرية والعدل ، وأحارب الهوان والقهر ، وأحذر من رعب أكبر من هذا سوف يجيء . تحركوا على صوتي كما يحرك البحارة أيديهم بالمجاذيف على إيقاع الأغنية المنطلقة من واحد منهم ، فيتحرك المركب الواحد ويشق صدر الموج والريح . تذكروا انهيار الدولة العباسية ، وتمزق دويلات الطوائف . إن الحرية والعدل ، والديموقراطية والعقل مهددة ، بل هي في الواقع تُخرَّب كل يوم . يجب علينا أن نختار . يجب على كل منا . قد تكون نظمنا سيئة ولا أمل فيها على الاطلاق ، لكن لا يمكن أن يُخرَّب الانسان تماماً . ولهذا أتجه اليكم وأتعذب من أجلكم ، لعلكم تحلمون معي وتعملون في سبيل مجتمع جديد ، مجتمع يكون كل فرد فيه قادراً على الحب والفهم ، حتى ولو لم يحبني أحد ولم يفهمني أحد . أنا لا أنصح ولا أعظ ولا أصلح الكون ، وإنما أقدم التجارب والحكايات والأمثلة ، وعلى كلٍ أن يستخلص منها نتائجه . أنا وقت مفقود بين الوقتين ، جسْر مشدود بين الماضي والمستقبل . تذكروا ، يا من تعبرون علينا ، أننا تعذبنا ورقدنا هنا من أجلكم . - لكي لا تنتهوا نهايتنا ، ليكون حظكم أسعد من حظنا . . . أضنتني شهوة إصلاح العالم . وتمنيت بأن أترك هذا العالم خيراً مما كان عليه قبل مجيئي . لكن القدرة محدودة ، والأيام ضنينة . فاذكرني ، يا من تأتي بعدي ، واحفظ عهد الشعر وعاهدني أن تتسامح وتكافح . . .

■